من بلاغة الخطاب الموجَّه إلى أمهات المؤمنين بما عليهنّ من آداب في سورة الأحزاب (من الآية ٢٨-٣٤)

د.الجوهرة بنت بخيت آل جهجاه
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

من بلاغة الخطاب الموجَّه إلى أمهات المؤمنين بما عليهنّ من آداب في سورة الأحزاب (من الآية ٢٨-٣٤)

د.الجوهرة بنت بخيت آل جهجاه
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

هذه دراسةٌ نظميّةٌ لبلاغة الخطاب، الذي اختصّ به الله –ﷻ– أمّهات المؤمنين في سورة الأحزاب بما فيها من آداب تخص جُملَة النساء على سبيل تشريف الله –ﷻ– أمّهات المؤمنين بخصوصيّتها، وهُنّ – عليهنّ أفضل الصلاة وأتمّ التسليم – قُدوة نساء الأرض كافة في الالتزام بالمأمور به، والانكفاف عن المنهيّ عنه مع ما صدرت به الكراهة، ولابسته الرّيَبُ والفَحاشَة، وذلك في آيات سورة الأحزاب من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٤، وهي تهدف إلى:

١–الوقوف على بعض اللطائف والأسرار البلاغية، والمؤثرات النظمية في أساليب الخطاب في آيات الآداب تلك.

٢–استنباط الدلالات المعنوية من وراء تلك الأسرار والمؤثرات، وفهم أبعادها في ذهن المتلقي.

٣–تمثيل نموذج متميّز لوسائل التوجيه والأخذ بيد النساء لما فيه مرضاة رب العالمين.

Select Rhetorical Aspects of Qur'anic Speech Directed to the Mothers of the Believers, with Regard to their Duties Mentioned in Surah Al-Ahzaab (Verses 28-34)

By Dr. Al-Jawhara bint Bakheet Al-Jahjah

Department of Rhetoric, Criticism, and Methodology of Islamic Literature

Faculty of Arabic Language, Al-Imam Mohammad bin Saud Islamic University

Abstrsct:

This study is concerned with the composition of rhetoric in speech that Allah has addressed to the mothers of the believers within *surah* al-Ahzaab, regarding general morals for women in honor of the mothers of the believers; may Allah's peace and blessings be upon them. This is because they are the role models for all women on Earth for performing good deeds and abstaining from forbidden and suspicious deeds. The study is limited to verses 28-34 of *surah* al-Ahzaab. The study aims at achieving the following goals:

1. Investigating selected rhetorical features and studying the compositional influences in the methods of discourse in the verses mentioned above.
2. Discerning the spiritual implications of these features and how they should be understood by the receptors.
3. Giving a good example for the methods of direction and guidance of women regarding what may please Allah.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيّه الأمين، أما بعد:

فهذه دراسةٌ نظميّةٌ لبلاغة الخطاب، الذي اختصّ به الله –عزّ وجلّ– أمّهات المؤمنين في سورة الأحزاب بما فيها من آداب تخص جُملَة النساء على سبيل تشريف الله –عزّ وجلّ– أمّهات المؤمنين بخصوصيّتها، وهُنّ –عليهنّ أفضل الصلاة وأتمّ التسليم– قُدوة نساء الأرض كافة في الالتزام بالمأمور به، والانكفاف عن المنهيّ عنه مع ما صدرت به الكراهة، ولابسته الرِّيَبُ والفَحاشَة، وذلك في آيات سورة الأحزاب من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين، وهي قوله –تعالى–: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

وتتمثّل أهمية الموضوع في أسباب اختياره، وهي:

١–علاقة هذا النجم بسباقه ولحاقه، وقبل هذا علاقته بفاتحة سورة الأحزاب التي بدأت بنهي الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن طاعة الكفار والمنافقين المرجفين لإسقاط المجتمع المسلم، ومن الواضح أن سورة الأحزاب كلها عن المنافقين وأذاهم المستتر ودسائسهم، ومن المعروف أن المنافقين إذا تحركوا –حتى في عصرنا الحاضر– ينشطون فيما يخص المرأة، والمعقد المختار للدراسة يصور أخص خاصية في

أذاهم والدس على المجتمع المسلم، وهو محاولتهم الوصول إلى بيت النبوة. لهذا تقدم على هذا المعقد ذكر غزوة الأحزاب ونصر الله المسلمين وفوزهم بالغنائم الكثيرة مما كان سببا في طلب أمهات المؤمنين –رضوان الله عليهن– الزيادة في النفقة، فنزلت هذه الآيات في ذلك، وتلاها مدح الله –تعالى– لصفات المؤمنين حق الإيمان وبيان أنه أعد لهم من المغفرة والأجر أعظمهما، ثم تلا ذلك مجموعة من الآداب في تعامل المسلمين مع نبيه– صلى الله عليه وسلم– كما كان ذلك في بداية السورة.

٢–حاجة نساء المؤمنين في العصر الراهن لترسيخ القيم الإسلامية في أخلاقهنّ وسلوكهنّ من مصدر التشريع الأول، وهو القرآن الكريم.

٣–توجيه الخطاب في آيات الآداب النسائية إلى صفوة نساء العالمين، وهنّ زوجات الرسول –صلى الله عليه وسلم– أمّهات المؤمنين –رضوان الله عليهنّ–، وهنّ القدوة الشريفة لنساء المسلمين من بعدهنّ.

٤–تميّز أسلوب الخطاب الرّبانيّ في آيات الآداب النسائية تلك، وغناه بمجموعة من أسرار النظم البلاغية التي تُعدّ من المؤثرات الخطابية التي يحتاجها الدّعاة وذوو النصح والإرشاد والتأديب؛ لتكون أساليبهم بعيدةً عن الجفاف والتنفير.

وأما أهداف البحث، فهي تكمن في:

١–الوقوف على بعض اللطائف والأسرار البلاغية، والمؤثرات النظمية في أساليب الخطاب في آيات الآداب تلك.

٢–استنباط الدلالات المعنوية من وراء تلك الأسرار والمؤثرات، وفهم أبعادها في ذهن المتلقي.

٣–تمثيل نموذج متميّز لوسائل التوجيه والأخذ بيد النساء لما فيه مرضاة رب العالمين.

وتتمثل الدراسات السابقة للبحث في دراسة الأستاذ الدكتور: محمد أبو موسى (من أسرار التعبير القرآني: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب)، و(دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب) لحسن عثمان يوسف عدوان.

وأما بشأن المنهج المتبع في هذا البحث، فهو المنهج النظمي، منهج عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) الذي يحلل العلاقات بين الكلمات والجُمل وفق العلاقات النحوية بما يجعل عناصر البلاغة خادمةً لمقاصد الآيات القرآنية، ومدلولاتها، وأغراضها في سياقها.

وقد جاءت الخطة بتقسيم الآيات القرآنية آيةً آيةً، وتتبّع ما في ألفاظها وجُملها من أسرار ولطائف دون تقسيم الآيات بحسب الآداب، أو بحسب الظواهر البلاغية؛ لقلة الآيات القرآنية، وحفاظًا على تميز السياق القرآني، ووحدته، وخصوصيته.

* * *

تمهيد

–سورة الأحزاب: اسمها ومقاصدها ومناسبتها لما قبلها وما بعدها:

"سورة الأحزاب مدنية، وآياتها ٧٣ آية، نزلت بعد سورة آل عمران، وتقع أحداث السورة فيما بين السنة الثانية والخامسة من الهجرة، وهي فترةٌ حرجةٌ لم يكن عود المسلمين قد اشتد فيها؛ إذ كانوا يتعرضون لدسائس المنافقين واليهود"[١]، وهذا هو اسمها التوقيفي الوارد في المصاحف، وكتب السنة، والتفسير[٢].

"والسورة تتولى جانبًا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة، وإبراز تلك الملامح وتثبيتها في حياة الأسرة والجماعة، وبيان أصولها من العقيدة والتشريع. كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها وإخضاعها في هذا كله للتصور الإسلامي الجديد"[٣].

"ومقصودها: الحث على الصدق في الإخلاص في التوجه إلى الخالق من غير مراعاة بوجه ما للخلائق؛ لأنه عليم بما يصلحهم، حكيم فيما يفعله، فهو يعلي من يشاء وإن كان ضعيفا، ويردي من يريد وإن كان قويا، فلا يهتمن الماضي لأمره برجاء لأحد منهم في بره، ولا خوف منه في عظيم شرّه، وخفي مكره.

وتسميتها بالأحزاب أوضح دليل على ذلك، بتأمل القصة التي أشارت إليها، ودلت عليها"[٤].

ومن مناسبتها لسورة السجدة قبلها أنه "لما ختمت التي قبلها بالإعراض عن الكافرين، وانتظار ما يحكم به فيهم رب العالمين، بعد تحقيق أن تنزيل الكتاب من عند المدبر لهذا الخلق كله، والنهي عن الشك في لقائه، افتتح هذه بالأمر بأساس ذلك،

---

١ أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ٣٠٢.

٢ ينظر: أسماء سور القرآن وفضائلها، ٣١٧.

٣ أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ٣٠٢–٣٠٣.

٤ مصاعد النظر، ٣٧٠/٢، ونظم الدرر، ٢٧٣/١٥.

والنهي عن طاعة المخالفين مجاهرين كانوا أو مساترين، والأمر باتباع الوحي الذي أعظمه الكتاب تنبيها على أن الإعراض إنما يكون طاعة لله مع مراعاة تقواه"[1].

وأما مناسبتها لسورة سبأ التي جاءت بعدها، فإنه "لما ختمت سورة الأحزاب بأنه –سبحانه– عرض أداء الأمانة وحملها –وهي جميع ما في الوجود من المنافع– على السماوات والأرض والجبال، فأشفقن منها وحملها الإنسان الذي هو الإنس والجان، وأن نتيجة العرض والأداء والحمل العذاب والثواب، فعلم أن الكل ملكه وفي ملكه، خائفون من عظمته، مشفقون من قهر سطوته، وقاهر جبروته، وأنه المالك التام الملك والمِلك المطاع المتصرف في كل شيء من غير دفاع، وختم ذلك بصفتي المغفرة والرحمة، دلّ على ذلك كله بأن ابتدأ هذه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال من الخلق والأمر كله مطلقا من الأولى والأخرى، وغيرهما مما يمكن أن يكون ويحيط به علمه سبحانه ﴿لِلَّهِ﴾ ذي الجلال والجمال.

ولما كان هذا هو المراد وصفه بما يفيد ذلك، فقال منبها على نعمة الإبداء والإبقاء أولا: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ أي وحده مِلكا ومُلكا وإن نسبتم إلى غيره ملكا وملكا ظاهريا ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي بأسرها ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي كما ترون أنه لا متصرف في شيء من ذلك كمال التصرف غيره...ولما أفاد ذلك أن له الدنيا وما فيها، وقد علم في آخر الأحزاب أن نتيجة الوجود العذاب والمغفرة، ونحن نرى أكثر الظلمة والمنافقين يموتون من غير عذاب، وأكثر المؤمنين يموتون لم يوفوا ما وعدوه من الثواب، وتعلم قطعا أنه لا يجوز على حكيم أن يترك عبيده سدى يبغي بعضهم على بعض وهو لا يغير عليهم، فأفاد ذلك أن له دارا أخرى يظهر فيها العدل وينشر الكرم والفضل، فلذلك قال عاطفا على ما سببه الكلام الأول من نحو: فله الحمد في الأولى، وطواه لأجل خفائه على أكثر الخلق، وأظهر ما في الآخرة لظهوره؛ لأنها دار كشف الغطاء، فقال منبها على نعمة الإعادة

---

١ نظم الدرر، ١٥/٢٧٣–٢٧٥.

والإبقاء ثانيا: ﴿ وَلَهُ ﴾ أي وحده ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ أي الإحاطة بالكمال ﴿ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ظاهرا لكل من يجمعه الحشر، وله كل ما فيها"[1].

-سبب نزول آيات سورة الأحزاب (٢٨-٣٤):

يكمن سبب نزول الآيات الكريمة في سؤال أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- له زيادة النفقة والتوسيع فيها بعد غزوة الأحزاب، لما رأينه من الغنائم والخيرات، فضايق ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واعتزل زوجاته في المشربة قرابة تسعةٍ وعشرين يومًا، ولم يخاطبهنّ إلاّ لمّا نزلت آيات التخيير، ويتضح ذلك في الحديثين الشريفين الآتيين:

"وحدّثنا زهير بن حرب. حدثنا روح بن عبادة. حدثنا زكرياء بن إسحاق. حدثنا أبو الزبير عن جابر بن عبد الله. قال: دخل أبو بكرٍ يستأذن على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فوجد الناس جُلوسًا ببابه، لم يُؤذن لأحدٍ منهم. قال: فأُذن لأبي بكر، فدخل، ثم أقبل عمر، فاستأذن، فأُذن له، فوجد النبي -صلى الله عليه وسلم- جالسًا، حولهُ نساؤه، واجمًا ساكتًا. قال: فقال: لأقولنَّ شيئًا أُضحك النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال: يا رسول الله! لو رأيتَ بنتَ خارجة! سألتني النفقة، فقمتُ إليها، فوجأتُ عُنقها. فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقال: "هُنّ حولي كما ترى، يسألنني النفقة". فقام أبو بكرٍ إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها. كلاهما يقول: تسألنَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما ليس عنده. فقُلن: والله! لا نسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شيئًا أبدًا ليس عنده. ثمّ اعتزلهنّ شهرًا أو تسعًا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾، حتى بلغ: ﴿ لِّلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾. قال: فبدأ بعائشة، فقال: "يا عائشة! إني أريد أن أعرض عليكِ أمرًا أحبّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويكِ". قالت: وما هو؟ يا رسول الله! فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ، يا رسول الله! أستشير أبويّ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. وأسألكَ أن لا

---

١ نظم الدرر، ١٥/٤٢٨-٤٣٠.

تُخبر امرأةً من نسائكَ بالذي قلتُ. قال: "لا تسألني امرأةٌ منهنّ إلا أخبرتها. إن الله لم يبعثني مُعنّتًا ولا مُتعنّتًا. ولكن بعثني مُعلّمًا مُيسّرًا"[1].

والحديث الآخر: "وحدثني أبو الطاهر. حدثنا ابن وهب. وحدثني حرملة بن يحيى التُّجيبي (واللفظ له). أخبرنا عبد الله بن وهب. أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب. أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، أنّ عائشة قالت: لمّا أُمِر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: "إني ذاكرٌ لكِ أمرًا، فلا عليكِ أن لا تعجلي حتى تستأمري أبوَيكِ". قالت: قد عَلِم أنّ أبوَيّ لم يكونا ليأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: "إن الله –عزّ وجلّ– قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾(الأحزاب: ٢٨– ٢٩) قالت: فقلتُ: في أيّ هذا أستأمر أبوَيّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم فعل أزواج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مثل ما فعلت"[2].

* * *

١ صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، بالرقم (١٤٧٨).

٢ صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، وباب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله –تعالى–: وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ (التحريم: ٤)، بالرقم (١٤٧٥).

متن الدراسة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾"قال علماؤنا: هذه الآية متصلةٌ بمعنى ما تقدّم من المنع من إيذاء النبي –صلى الله عليه وسلم– وكان قد تأذّى ببعض الزوجات"[1].

يتصدّر خطابُ الآداب لأمهات المؤمنين –رضوان الله عليهنّ– بالنداء من لدُن رب العزّة والجلال، المُفتَتح بـ (يا) –المختصة بالبعيد مسافةً أو حُكمًا[2]– لا لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– بعيدٌ في مكانه عن ربّ السموات العُلى؛ فهو في الأرض، وربّه –تبارك وتعالى– فوق العرش العظيم في أعلى سماء وأشرفها، وإنما –والله أعلم– أنّ حاله –صلى الله عليه وسلم– بما مسّه من كربٍ وضيقٍ؛ بسبب مراجعة أزواجه –رضوان الله عليهنّ– له في مسألة النفقة وطلبهنّ التوسعة فيها مراجعةً بلغت درجة الإلحاح والأذى[3] حتى اعتزلهنّ –صلى الله عليه وسلم– جميعًا عِدّة شهرٍ كامل[4]، كانت حالَ مَن أُنسِيَ حقيقة نفسه، وبَعُد عن دُنياه، وانقطع عن صحبِه وأهله، حتى لَكأنَّه ما لهُ شيءٌ يُسلّيه عن هذا الكرب والضيق الذي استولى على قلبه، وحجز حركته في ضِيق خِزانته –

---

١ الجامع لأحكام القرآن، ١١٧/١٧.

٢ ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، ٣٥٤–٣٥٥.

٣ كانت مطالبة زوجتيه –ﷺ– عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر –رضي الله عنهم أجمعين– حادّةً جدًا، وفيهما نزل قوله –ﷻ–: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾ (التحريم: ٤–٥)، وينظر: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، وباب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ (التحريم: ٤)، بالرقم (١٤٧٩).

٤ ينظر: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، وباب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ (التحريم: ٤)، بالرقم (١٤٧٥). وما روي من أن مدة الاعتزال ٢٩ يوما لا يتعارض مع كون المدة شهرا بمفهوم الشهر الشرعي واللغوي؛ لأن الشهر قد يكتمل ٣٠ يوما ويُسمّى شهرا، وقد ينقص إلى ٢٩ يوما ولا يُسمَّى إلا شهرا مثل الذي عِدّته ثلاثين يوما.

صلى الله عليه وسلم– في مَشرَبة بيته[1]، لا يلقى حتى أحبّ أصحابه إليه. وهو –صلى الله عليه وسلم– بهذا قد غلبت عليه مشاعر الرجل الرحيم الذي جُبل على الإشفاق على أهل بيته، وفي مقامه –صلى الله عليم وسلم– يعظم التأثر والإشفاق؛ خوفا من أن تسلب الدنيا ألباب أزواجه –عليهن رضوان الله ورحماته– فيهتزّ بيت النبوة، الذي تتمثّله بيوت المسلمين أُسوةً لها وقدوة!

تأتي (أيّ) وهي تُعيّنهُ –صلى الله عليه وسلم– مقصودًا مُختصًا بالخطاب بعينه دون غيره[2]، وممكِّنةً لمجيء الوصف المُحلَّى بأل بعد (يا) النداء، إذ يمتنع مجيئه بعدها دون توسّط (أيّ) بينهما[3].

وقد وقع النداء بالياء، "ولم يقع النداء في القرآن –مع كثرته– إلاّ بها"[4]. "وهي أم الباب، ومن ثم قال أبو حيان: إنها أعمّ الحروف، وإنها تستعمل للقريب والبعيد مطلقًا... وقد يُنادى بها القريبُ توكيدًا"[5]. وقد جاء في شروح التلخيص أن العبرة في استعمال أدوات النداء بُعدًا أو قُربًا هي تصوّر علاقة المنادِي بالمنادَى إليه بحسب أهمية الموضوع المتحدَّث فيه الذي يُستعمَل النداء لأجله؛ لهذا قد يُنزَّل القريب منزلة البعيد لخطر الأمر وأهميته، أو لتنزيل المنادى منزلة الغافل الساهي حقيقةً أو مجازًا، أو المقصِّر، لأنه لم يَفِ بحق الأمر عليه، وذلك كلّه تنبيهًا على أنّ الأمر المنادى إليه عظيمٌ شأنه عالٍ[6].

---

١ يُنظَر: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، وباب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: **وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ** (التحريم:٤)، بالرقم (١٤٧٩) في جواب حفصة عندما سألها عمر بن الخطاب عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فقالت: "هُو في خِزانتِه في المَشربة". والمشرَبة أو المشرُبة: الغرفة. ينظر: لسان العرب: مادة (شَرَبَ).

٢ ينظر: الإيضاح، ٣/٩١–٩٢.

٣ ينظر: تفسير الشعراوي، ١١٨٨٦/١٩.

٤ التبيان في غريب القرآن، ٥٧/١.

٥ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ٣٤/٢.

٦ ينظر: المطول، ١٨٨، وشروح التلخيص، ٣٣٤/٢.

ولا شكّ أنّ عِظم الأمر المُنادى إليه هو الداعي إلى استعمال (يا) في قوله –تعالى–: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾، وصيغة النداء بِـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ لها أهميتها ومناسبتها للسياق، وقد "قال الزمخشري وغيره: كَثُر في القرآن النداءُ بِـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ دون غيره؛ لأن فيه أوجهًا من التأكيد وأسبابا من المبالغة؛ منها ما في "يا" من التأكيد والتنبيه، وما في "ها" من التنبيه، وما في التدرّج من الإبهام في "أيٌّ" إلى التوضيح، والمقام يُناسب المبالغة والتأكيد؛ لأن كلّ ما نادى لهُ عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية وغير ذلك ومما أنطق الله به كتابه أمورٌ عظامٌ وخطوبٌ جسام ومعانٍ واجبٌ عليهم أن يتيقّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون، فاقتضى الحالُ أن يُنادَوا بالآكد والأبلغ"[1].

والوصف المحلّى بأل هذا لم يكن (الرسول) الذي يُبلّغ للناس رسالةً فيها تشريعٌ جديد، وإنما ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾؛ لأن الذي نزلت فيه الآيات حادثةٌ خاصّةٌ ببيت النبوة من أجل حلّ معضلتها الحادثة، وينبغي أن تكون منهجًا بين المسلمين في الحوادث المشابِهة؛ لأنه – صلى الله عليه وسلم– اختار منهج حياته على الكفاف في بيوته، وبما أنّ النبوة لا تكون إلاّ أمرا عظيما يجب أن يُعتنى به أشد العناية؛ لأن النبأ يُلقى من ربّ العالمين المتعالي إلى نبيّه المصطفى، وليس مثل ذلك الخبر الذي يكون من بشرٍ إلى بشر[2]، ويُضاف إلى ذلك أن وصف النبيّ من التنبّؤ، وهو اختصاص الله –جل جلاله– نبيَّه المصطفى بعلمٍ من علم الغيب يُلقى إليه، ويُلهمه الله –عز وجل– وسائل الوصول إليه؛ وفي ذلك فائدتان:

١–جذب حواسه –صلى الله عليه وسلم– واستجماع قلبه؛ تذكيرًا له –وهو المنادَى– بحقيقته ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾، وأنه عظيم الشأن، يُنادى بعينه من لدن ربّ السموات العلى دون غيره من أهل الأرض وملائكة السماء، وكأنّ رب العزة والجلالة –سبحانه ما أرحمه وما

---

١ الإتقان في علوم القرآن، ٢٨٣/٣. وأصل الكلام للزمخشري في الكشاف، وقد اخترتُ صيغة السيوطي؛ لأنها أجمع للفكرة وأوجز. ينظر: الكشاف، ٢١٠/١–٢١١.

٢ ينظر: تفسير الشعراوي، ١١٨٨٧/١٩.

أرأفه!– يُطيّب خاطره –صلى الله عليه وسلم– مما ألمّ به، ويجذبه عمّا يختلج في صدره، ويجول في تفكيره وتأمّله، وهو يتحرّى الوحيَ الذي يُليذه بجوابٍ عُلْوِيٍ، يليق بمدارج النبوة التي اصطفاه العزيز القدير لها، يُجيب به على طلب نسائه –رضوان الله عليهن– اللاّئي تفتّحت وردةُ الدنيا في أعينهنّ بعد غنائم غزوة بني قريظة، فتاقت أنفسهنّ الشريفة للتنعّم بمتاع الدنيا، والتعزّز بما يرين أنه يليق ببيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من الرغد وطراوة العيش بعد ما مَنَّ الله به عليه –صلى الله عليه وسلم– وعلى المسلمين[1]!

فكأنه –تعالى– يستدعيه من هذا الكرب الذي أطبق على تفكيره –صلى الله عليه وسلم– فيما سمعه من زوجاته الحبيبات إلى نفسه، العزيزات رغباتهنّ ومطالبهنّ على قلبه وقدرته وقيادته لأمته... فجاء النداء يُهوّن عليه المُصاب، ويمنحه الرد الهادي إلى الصواب؛ فهنّ نساؤه لم يطلبن ما طلبن إلاّ لمَّا رأين المغانم تفيض وتتيسر، فظننَّ أنها الإذن العملي بحياة التنعّم بشيءٍ من الخُمس الذي شرع الله فيه نصيبًا لرسوله –صلى الله عليه وسلم–[2]، دون أي حرجٍ؛ ليكون ذلك سبيلاً إلى مزيدٍ من حُسن تبعُّلهنّ له –صلى الله عليه وسلم–، وتطييب بيت الزوجية النبوي وتجميله بما ليس فيه من مُتع الحياة الموجودة في البيوت الأخرى؛ ظنًّا أن الجمال والترف الظاهريين يدعمان الجمال والسكن الداخليين ويزيدانهما في بيت النبوة دون أن يؤذي ذلك ربَّ الزوجيّة –صلى الله عليه وسلم– في هذا البيت الشريف.

---

١ ينظر: صحيح مسلم كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، بالرقم (١٤٧٥)، و(١٤٧٨)، وباب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله –تعالى–: وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ (التحريم: ٤)، بالرقم (١٤٧٥) و(١٤٧٩)، والكشاف، ٥/ ٦٣– ٦٥، وروح المعاني، ٢١/ ١٨١–١٨٢، وتفسير الرازي، ٢٥/ ٢٠٦– ٢٠٧، ونظم الدرر، ١٥/ ٣٣٨– ٣٣٩، واللباب في علوم الكتاب، ١٥/ ٥٣٤– ٥٣٨، والتحرير والتنوير، ٢١/ ٣١٤– ٣١٥، وفي ظلال القرآن، ٢٢/ ٢٨٥٣– ٢٨٥٧، وتفسير الشعراوي، ١٩/ ١٢٠٠٣– ١٢٠٠٤، و١٢٠٠٧، وأهداف كل سورة ومقاصدها، ٣٠٦– ٣٠٧.

٢ يقول –ﷻ–: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤١).

٢-أنه -صلى الله عليه وسلم- مُثبِّت الفؤاد، يعلم أنّ الله سيردّ إليه نساءه ردًّا جميلا عن إغراء الحياة الدنيا، فهذه النبوءة تقويّه على إدارة الأمر بما يجعلهنّ يكسرن حدّة الفورة الجامحة الراغبة في تحصيل لذّة الدنيا في بيت النبوة بعد رؤية فتح الله على المسلمين بالمغانم الكثيرة والغلبة والنصر المبين.

فكأنما من مضمون القول: أنت النبي، وهُنّ زوجاتك اختارهنّ الله لك؛ لميزاتٍ اختصّهنّ بها، لن تغلبهنّ عليها رغبة الدنيا العارضة. فالتذكير بأنه نبي -صلى الله عليه وسلم- يستدعي التذكير بأنهن زوجات النبي، وفيهنّ فضل، وإليهن سبيل ليرجعن عن هذه المطالَبات المحتدمة رجوعًا صادقًا مُنيبًا، بخاصة أنهنّ دخلن في عصمته -صلى الله عليه وسلم- وهنّ عالماتٌ بحاله وبمنهجه في حياته.

فكأنما من مضمون القول: أنتَ النبي، وهُنّ زوجاتك، اختارهنّ الله لك؛ لميزاتٍ اختصّهنّ بها، لن تغلبهنّ عليها رغبة الدنيا العارضة. فالتذكير بأنه نبيٌّ -صلى الله عليه وسلم- يستدعي التذكير بأنهنّ زوجات النبي، وفيهنّ فضلٌ، وإليهنّ سبيلٌ ليرجعن عن هذه المطالبات المحتدمة رجوعًا صادقًا مُنيبًا، بخاصةٍ أنهنّ دخلن في عصمته -صلى الله عليه وسلم- وهنّ عالماتٌ بحاله ومنهجه في حياته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ "ناداه فيه -سبحانه- بوصف النبوة؛ لأن المقام مقام إنباءٍ لأزواجه وتبليغ بالاختيار، وفي وصف النبوة إشارةٌ إلى عظمة قدره ومكانته"[1]، والغرض من النداء هو توكيد ذلك[2].

وحين يرى ابن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣هـ) -رحمه الله- أن في هذا الافتتاح لتلك الآداب بندائه -صلى الله عليه وسلم- بـ(يا أيها النبيء[3]) تنبيهًا "على أنّ ما سيُذكر بعد النداء له

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٤٣-٢٤٤.

٢ ينظر: نفسه، ٢٠٠.

٣ يُثبت ابن عاشور كلمة النبي في كتابه بهذه الصيغة (النبيء)؛ إشارةً إلى أنها من النبوءة. ينظر: التحرير والتنوير، ٢١/ ٣١٥، ولسان العرب، مادة (نَبَأ).

مزيد اختصاصٍ به، وهو غرض تحديد سيرة أزواجه معه سيرةً تناسب مرتبة النبوة"[1]، يرى البقاعي (٨٠٩-٨٨٥هـ) -رحمه الله- أنّ الله -عز وجل- قد أجرى النداء بهذه الصيغة "ذاكرًا صفة رفعته[2]، واتصاله به -سبحانه-، والإعلام بأسرار القلوب، وخفايا الغيوب، المُقتضية لأنْ يُفرّغ فكرَه لما يتلقّاه من المعارف، ولا يُعاقَ عن شيءٍ من ذلك بشيءٍ من أذى"[3] وهذا هو الأقرب للمعنى المراد، والله أعلم.

﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ في هذا "إشارةٌ إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله"[4]؛ أي إن صيغة الخطاب تأديبٌ له -صلى الله عليه وسلم-.

إن عبارة ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ قد صارت جزءًا رئيسًا من الرسالة التي عليه أداؤها -صلى الله عليه وسلم-[5]. والقول يستلزم سلامة آلة السمع لدى المُخاطَب، ويترتّب عليه سلامة العقل والإدراك والنية.

وجاء التعبير بـ(أزواج) لا (نساء)؛ لأن المقصود فقط زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم- اللاتي عقد عليهنّ، ودخل بهنّ؛ لحُرمتهنّ الشديدة[6]، ويخرج من ذلك من تسرّى بها، كما تخرج بناته -رضوان الله عليهنّ-.

كذلك فيه تذكيرٌ برابط الزوجية المتين، مع أنه قابلٌ للحلّ سريعًا بالطلاق خلافًا لرابط النبوة الذي لا ينحلّ أبدًا، وفي هذا تلميحٌ بالتخيير والانفصال.

و(أزواجه -صلى الله عليه وسلم-) المراد بها -كما سبق- "اللاتي تزوّجهنّ بنكاح، فلا يدخل في ذلك ملك اليمين"[7]، وقد جاء جمع الأزواج لدفع توهّم أنّ المقصود بعضهنّ،

---

١ التحرير والتنوير، ٢١/ ٣١٥.

٢ الهاء عائدة على النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٣ نظم الدرر، ١٥/ ٢٧٦-٢٧٨.

٤ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٧٩.

٥ ينظر: اللباب في علوم الكتاب، ١٥/ ٥٣٧-٥٣٨.

٦ ينظر: نظم الدرر، ١٥/ ٢٨٩-٢٩١.

٧ التحرير والتنوير، ٢١/ ٢٦٨-٢٦٩.

أو عائشة وحفصة اللَّتين أغلظتا له القول والطلب، وكانتا سببًا مباشرًا في إيلائه من نسائه، واحتجابه شهرًا. والتصدير بالقول أقوى من الأمر (اخترن)؛ لأن القول حكايةٌ نصيّةٌ عن الله –سبحانه وتعالى– وهذا أمرٌ مهيب؛ أي إنّه –صلى الله عليه وسلم– ينطق بكلمة الله.

وقد عُرّفت (أزواج) النكرة بضمير المخاطب في موضعٍ "أفاد التهديد لهن إن اخترن الحياة الدنيا على الآخرة"[1].

إنّ السر في تصدير آية النداء بِـ﴿قُل﴾ "أنّ الله –سبحانه– يتكلم؛ أن الله يأمر؛ أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– مأمور؛ أن هذا القرآن كلام الله؛ أنّ الرسول –صلى الله عليه وسلم– مبلِّغ. وفي ذلك إعلامُ المخاطَبين بأنه لم يأتِ بهذا الكلام ابتداءً من عنده، بل هو مبلِّغٌ لكلام مرسِله، وهم قومٌ مربوبون؛ وجوب التبليغ؛ التنبيه على أهمية مضمون الجملة؛ تشريف المأمور بتوجيه الخطاب له"[2].

لقد جادلنه –رضوان الله عليهنّ– برغباتهنّ، وهو يردّ عليهنّ بقول العلاّم الكبير الذي خلقهنّ وقدّر رزقهنّ وكتب أن يكنّ زوجاتٍ له؛ فكيف بهنّ يُحاددن الله ورسوله؟! ويُحزنّ قلبه؟! والأمر بالقول يعني أنه لا قول سواه أصلح لهذا المقام والحال. ومن ذلك نخرج بفائدة، وهي أن الزوج لا يقهر زوجاته مباشرةً في طلباتهنّ، وعليه إمضاء زمنٍ يفكّر فيه، ويرى أمره، ويستخير ربّه، ثم يخيّرهنّ؛ جريًا على سنة المصطفى –صلى الله عليه وسلم–.

والقول –هنا– أمرٌ لضبط النفس، والاكتفاء بما هو من دفع اللسان دون استعمال قوة الكف والبنان؛ فالزواج عقدُه بالقول، وحلّه بالقول، والأمر هنا والإشكال كانا بالقول، ورضوان الله عليهنّ لم يجرؤن على فعل ما قد يؤذيه –صلى الله عليه وسلم– أمام المسلمين؛ أي خارج بيته كأن تشتري إحداهنّ ما لم تعهد شراءه، أو تطلب مثل ذلك

---

١ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٢٧.

٢ تفسير جزء تبارك وفوائده وأحكامه، ٥٣.

دون علمه وإذنه –عليه الصلاة والسلام–؛ فهنّ ملتزماتٌ بالأدب الزوجي والاستئذان مهما بلغت شدّة رغبتهنّ –رضوان الله عليهنّ– فيما يطالبن به. واللام في ﴿لِأَزْوَٰجِكَ﴾ لتعدية الفعل (قل) فالفعل (قل) لا يمكن أن يتعدى دونها إن أردنا العموم. وقد صرّح بوصفهنّ، ولم يضمرهنّ مع أنهنّ ضايقنه بما جعله يؤاليهنّ شهرًا؛ ولو قال: (لهنّ) لأوقع الضمير المبهم إشكالاً بتحديد مقصوده عددًا وماهيةً، ولم تجئ (زوجك) بالإفراد؛ دفعًا لتوهّم أنها واحدة؛ بخاصة عائشة كما توهّم الرافضة[1]، ودفعًا لما شاع بين المسلمين من أنه – صلى الله عليه وسلم– قد طلّق نساءه؛ والمرأة لا تملك حبلها؛ لأنه بيد الزوج، قد يصرمه ويطلقها وهي لا تدري؛ فكان البدء بذكر الزوجات وتحديد اتجاه القول مطمئنًا لنفسياتهنّ، دافعًا عنها توهّم تطليقهنّ دون التصريح لهنّ بذلك، وليستقبلن منه –صلى الله عليه وسلم– القولَ بصفته الزوجية؛ فهي التي جمعتهنّ به، وأدامت وصلهنّ به؛ وهو كذلك تطمينٌ لقلبه –صلى الله عليه وسلم– أنهنّ زوجاته المحبّات ما زلن على العهد؛ ولا بد أن يتحرى معهنّ في تبليغ هذا الأمر رقّة الزوج المعهودة منه، وتقبّل ما قد يصدر من أفعال طبائعهنّ مستحضرًا الوصف الشريف الذي نُودي به في صدر الآية (النبوة). وقد حدث عندما فرح الزوج باختيار زوجته له، ورفض إجابتها بطلبها تخبئة اختيارها عن زوجاته الأخريات مستحضرًا جانب النبوة والرسالة؛ لضبط غيرتها؛ كيلا تُشعل مشكلةً أخرى.

لقد "أفاد الأمر في هذه الآية الوجوب، وذلك من جهة خطابه –عليه الصلاة والسلام– بإبلاغ الرسالة، والتبليغ من مقتضيات الرسالة، وهو واجبٌ في حقّه –عليه الصلاة والسلام–"[2].

إن مجيء الأمر بعد النداء "دلالةٌ على كمال العناية بهذا الأمر، من حيث كان النداء تنبيهًا، وإيقاظًا، وتهيئةً للعقل والحس؛ حتى يتلقّى الأمر تلقّيًا واعيًا"[3].

---

١ ينظر: نكت القرآن، المجلد٢، ٣/ ٦٤٩–٦٥٢.

٢ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٦٤.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٤٤–٢٤٥.

"وشيءٌ آخر في هذا الأمر هو صرف الكلام عن مخاطبة أزواج النبي –صلى الله علية وسلم– خطابًا مباشرًا في هذا المقام اللائي يُخيّرن فيه بين الله ورسوله والدار الآخرة، والحياة الدنيا؛ حتى يكون الخيار خيارًا خالصًا يُترك فيه الأمر لمحض إرادة المُخيَّر وفكره، فقد يكون في إقبال الله عليهنّ بالخطاب ما يُحبّب إليهنّ اختيار الله ورسوله، ولهذا قدّم في الاختيار قوله: ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ على قوله: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾"[1].

﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ "نلحظ في الأسلوب هنا أن الحق –سبحانه– حين يعرض على رسوله أن يُخيّر زوجاته بين زينة الدنيا ونعيم الآخرة يستخدم ﴿ إِن ﴾ الدالة على الشك، ولا يستخدم مثلاً (إذا) الدالة على التحقيق، وفي هذا إشارةٌ إلى عدم المبالغة في اتهامهنّ، فالأمر لا يعدو أن يكون خواطر جالت في أذهان بعض زوجاته"[2].

ويتضح سر التعبير بالإرادة في قوله –تعالى–: ﴿ تُرِدْنَ ﴾ حيث إن "الإرادة معناها أن يتجه الهمّ كله، وأن تتجه النفس بكليّاتها إلى الحياة الدنيا وزينتها، ويكمن في هذا التعبير سر التزهيد فيها، والانحراف عن الدين عند خلوص الهمّ والإرادة إليها"[3]. وقد جاء التعبير بالمضارع دلالةً على التجدد والحدوث، وأن الاختيار سيكون لازما في الأحوال كلّها.

والمقصود بزينة الدنيا زخرفها، وهذا إطنابٌ من باب التخصيص بعد التعميم[4] سيأتي سرّه، وقد جرى تقديم اختيار الدنيا وزينتها "إشارةً إلى أن النبي –صلى الله علية وسلم– غير مُلتفتٍ إلى الدنيا ولذاتها غاية الالتفات"[5]. وقد "أضاف الزينة إلى ضمير الحياة الدنيا تزهيدًا فيها، ولأنها زائلةٌ، وهذا فيه إشارةٌ إلى توجيههنّ –رضي الله عنهنّ– لاختيار الدار

---

١ نفسه، ٢٤٤–٢٤٥.

٢ تفسير الشعراوي، ١٢٠٠٦/١٩.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٤٧–٢٤٨.

٤ ينظر: روح المعاني، ١٨٠/٢١–١٨١.

٥ نفسه، ١٨٢/٢١.

الآخرة وما فيها"[1]. وقد "عطف الزينة على الحياة الدنيا مع أنها جزءٌ منها، والمراد بهذا العطف التنبيه على أنّ المتعلق المحذوف عام، أي: وأردتنّ الانغماس في شؤون الدنيا"[2]. كذلك فإن هذا الإطناب يمكّن المعنى في النفس خير تمكّن، ويشعرها به على أتم وجه[3].

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يأتي جزاء اختيارهنّ الدنيا بهذا الشكل الذي تنتهي به صلتهنّ الزوجية به – صلى الله علية وسلم – وفي استعمال ﴿تعالين﴾ سر بلاغي؛ إذ "نلحظ في كلمة ﴿تعالين﴾ حين نتعمق في معناه إشارةً خصبةً، لأنه لا يفيد الأمر بالإقبال فحسب، وإنما هو إقبالٌ فيه سموٌّ وارتفاعٌ، وفيه أيضًا خلوصٌ واندفاعٌ، كأنه قال: أقبلنَ غير صاغراتٍ، وأقبلنَ بمحض إرادتكنّ واختياركنّ"[4]. "و﴿تعالين﴾ اسم فعل أمرٍ بمعنى: أقبلن، وهو هنا مستعملٌ تمثيلاً لحال تهيُّؤ الأزواج لأخذ التمتيع وسماع التسريح بحال مَن يُحضَر إلى مكان المتكلِّم"[5]، "والظاهر أن الإقبال هنا مُستعارٌ للإرادة والإقبال بالاختيار تشبيهًا للمعقول بالمحسوس"[6]، وهو يفيد الوجوب[7].

وقد "جزم ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ في جواب ﴿تعالين﴾ وهو اسم فعل أمر وليس أمرًا صريحا، فجزم جوابه غير واجب، فجيء به مجزوما ليكون فيه معنى الجزاء، فيفيد حصول التمتيع بمجرد إرادة إحداهن الحياة الدنيا"[8].

---

١ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٣٣ بتصرف.

٢ نفسه، ٢٣٤، وينظر: التحرير والتنوير، ٢١/ ٣١٥.

٣ ينظر: الإيضاح، ٣/ ١٩٦.

٤ من أسرار التعبير القرآني، ٢٤٨–٢٤٩، وينظر: نظم الدرر، ١٥/ ٣٣٥–٣٣٧.

٥ التحرير والتنوير، ٢١/ ٣١٦.

٦ حاشية القونوي، ٣٤٥.

٧ ينظر: دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٦٤–١٦٥.

٨ التحرير والتنوير، ٢١/ ٣١٦.

وقد تمّ تقديم المتاع على التسريح كرمًا وقطعًا للمعاذير بعده، ولاستعمال لفظ (تسريح) ووصفه بِـ(جميلا) خصوصية، فـ"التسريح –الذي هو الطلاق– مُستعارٌ من تسريح الإبل؛ لأنه يترتب على كلٍّ منها الإرسال والذهاب، ومثله في ذلك الطلاق، فإنه مُستعارٌ من إطلاق الإبل؛ أي حلّ قيدها وإرسالها"[1]. بمعنى أنها محبوسة لدى صاحبها، وفي ذلك مشابهة بعلاقة الرجل بزوجه، فالزوجة أشبه بالأسير المحبوس في حمى الزوج، فإذا وقع الطلاق حلّ وثاقها وأرسلها، ويفيد هذا المعنى ما جاء في سنن الترمذي: "حدثنا الحسن بن علي الخلال قال: حدثنا الحسين بن علي الجُعفي، عن زائدة، عن شبيب بن غرقدة، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي: أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فحمد الله، وأثنى عليه، وذكّر، ووعظ، فذكر في الحديث قصة، فقال: "ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنما هُنّ عوانٌ عندكم، ليس تملكون منهنّ شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، ألا إن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فُرشكم من تكرهون، ولا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقّهنّ عليكم أن تحسنوا إليهنّ كسوتهنّ وطعامهنّ". هذا حديث حسن صحيح، ومعنى قوله: "عوانٌ عندكم"، يعني: أسرى في أيديكم"[2].

وجاء ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ مضارعين للدلالة على تجدد الحدث استيفاءً للدلالة بما تستوجبه، وجاء ﴿سَرَاحًا﴾ نكرة، ومن فوائد التنكير الإطلاق في الدلالة، بمعنى أنه سيكون فراقا لا عودة بعده، كما أنه سيكون سراحا عظيما في كيفيّته ووقعه.

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٤٩–٢٥٠.

٢ سنن الترمذي، أبواب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، بالرقم (١١٦٣).

"و(السراح الجميل) فسّره بعضهم بالطلاق السُّنيّ الذي لا ضرر فيه، أي إنه –عليه السلام– يُسرحهنّ في طهرٍ لم يمسسهنّ فيه، وقال صاحب مجمع البيان من تفسير (السراح الجميل): إنه الطلاق الخالي عن الخصومة والمشاجرة"[1].

وبما أن "التسريح هنا يعني الطلاق، ووُصف بـ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، فإن ذلك يدل على أن المفارقة بين الزوجين إن تمّت إنما تتم بالجمال؛ أي: اللطف والرقة والرحمة بدون بشاعة وبدون عنف؛ لأن التسريح في ذاته مفارقةٌ مؤلمةٌ، فلا يجمع الله على الزوجة شدّتين: شدّة الطلاق، وشدّة العنف والقسوة"[2].

وكون التسريح الجميل يأتي منه –صلى الله عليه وسلم– فإن ذلك دلالة على أنه –صلى الله عليه وسلم– "ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه"[3].

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ وُصلت جملة الشرط الثانية بجملة الشرط الأولى لاتفاق الجملتين في الشرطية، واختلافهما في المعنى المراد؛ أي في طبيعة موضوع الشرط، كما أن هناك فرقًا في جواب الشرط، فالأول جاء فعليا يدل على التجدد والحدوث، فهو من الرسول –صلى الله عليه وسلم– لأزواجه، والثاني جاء جملة اسمية، فالجزاء من الله –تعالى– جزاء ثابت دائم لا يتغير.

"ومعنى ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إن كنتنّ تُؤثرن الله على الحياة الدنيا؛ أي تُؤثرن رضى الله لما يريده لرسوله، فالكلام على حذف مضاف إرضاء الله: فعل ما يحبه الله ويُقرّب إليه، فتعدية فعل ﴿تُرِدْنَ﴾ إلى اسم ذات الله –تعالى– على تقديرٍ تقتضيه صحة تعلّق الإرادة باسم ذات؛ لأن الذات لا تُراد حقيقةً، فوجب تقدير مضافٍ، ولزم أن يُقدّر عامًا كما تقدم.

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٥٠–٢٥١.
٢ تفسير الشعراوي، ١٩/١٢٠٠٥ بتصرف.
٣ تفسير الرازي، ٢٥/٢٠٦–٢٠٧.

وإرادة رضى الرسول –صلى الله عليه وسلم– كذلك على تقدير: أي كل ما يُرضي الرسول –عليه الصلاة والسلام–. وأول ذلك أن يبقين في عشرته طيّبات الأنفس.

وإرادة الدار الآخرة: إرادة فوزها، فالكلام على حذف مضافٍ يقتضيه المقام أيضًا، فأسلوب الكلام جرى على إناطة الحكم بالأعيان، وهو أسلوبٌ يقتضي تقديرًا في الكلام من قبيل دلالة الاقتضاء[1]؛ (أي ما يستدعيه الكلام ويطلبه دلالةً على المسكوت عنه).

وفي حذف المضافات وتعليق الإرادة بأسماء الأعيان الثلاثة مقصد أن تكون الإرادة متعلّقةً بشؤون المضاف إليه التي تتنزّل منزلة ذاته مع قضاء حق الإيجاز بعد قضاء حق الإعجاز"[2].

وقد عُطفت المفردات المعرّفة (الله، رسوله، الدار) على بعضها لاشتراكها في العلمية.

وبشأن تخصيص الوعد بالمحسنات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ "لم يقل: أعدّ لكنّ؛ لأنه جعل مناط الوعد على الإحسان، والعمل النافع"[3]. "وفي ذكر الإعداد إفادة العناية

---

١ ودلالة الاقتضاء مصطلح من مصطلحات علم أصول الفقه، والاقتضاء "عبارة عن زيادة على المنصوص عليه يشترط تقديمه، ليصير المنظوم مفيدا أو موجبا للحكم، وبدونه لا يمكن إعمال المنظوم". أصول السرخسي، ٣٤٨/١. وقد قارن الأصوليون بين دلالة الاقتضاء ودلالة الإضمار، لبيان حدّ كلٍّ منهما، "فذهب جماعة من الحنفية، منهم أبو زيد الدبوسي إلى عدم المغايرة؛ لأن كلاً منهما عبارة عن إسقاط شيء من الكلام، لا يتم الكلام بدونه نظرا إلى العقل أو الشرع أو إليهما، لا إلى اللفظ، إذ اللفظ صحيح منهما، وذهب الجمهور إلى الفرق، ثم اختلفوا في وجه التغاير على أقوال". البحر المحيط في أصول الفقه، ١٦٠/٣. ورُدّت هذه الأقوال الثلاثة كلها. ينظر: نفسه، ١٦١/٣. "وقال الصفي الهندي: والصحيح الفرق بينهما من حيث المعنى واللفظ، أما من حيث المعنى فالمقتضى أعمّ من المضمر؛ لأن المقتضى قد يكون مشعورا به للمتكلم، وقد لا يكون، بخلاف المضمر، فإنه لا يكون إلا مشعورا به؛ لأنه اسم مفعول من أضمره المتكلم، فعلى هذا كل مشمر مقتضى، ولا عكس؛ وأما من حيث اللفظ، فمن وجهين: أحدهما: أن الإضمار إنما يستعمل حيث يعرفه كل أحد؛ لأنه عبارة عن إسقاط شيء يدل عليه الباقي، بخلاف الاقتضاء، فإنه قد يحتاج فيه إلى تأمل ونظر. وثانيهما: أن في صورة الإضمار تغيير إسناد اللفظ عند التصريح بالمضمر، وفي الاقتضاء قد يكون كذلك، كقوله: (رفع عن أمتي الخطأ)، وقد لا يكون كما في اصعد السطح، وكذلك في اعتق عبدك عني، والحاصل أنهما يفترقان من جهة الغفلة عن الشيء وتغير الإسناد، وهما متحدان في أن المقصود بالكلام لا يتم إلا بهما". نفسه، ١٦١/٣–١٦٢. وينظر كذلك في: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ٢٦١/١.

٢ التحرير والتنوير، ٣١٦/٢١–٣١٧.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٤٩–٢٥٠.

بهذا الأجر والتنويه به زيادةً على وصفه بالعظيم"[1]. "وتوكيد جملة الجزاء بحرف (إن) الذي ليس هو لإزالة التردد إظهارٌ للاهتمام بهذا الأجر"[2].

وفي اختياره لحرف الجر (مِن) في قوله: ﴿مِنكُنَّ﴾ سرٌّ بلاغي، فـ"لمَّا أتى -سبحانه- بهذه العبارة الحكيمة الصالحة مع البيان للتبعيض ترهيبًا في ترغيب، أحسن كلهنّ وحققن بما تخلّقن به أنّ (مِن) للبيان"[3].

وفي سياق حرية الاختيار وعدم المقابلة بين الوعد والوعيد في الاختيار، وتقديم اختيار الدنيا وزينتها لضمان عدم إكراههن[4] يتضح أنّ "هذا المعنى في سياقنا يؤكد لأزواج النبي -عليه السلام- حرية الاختيار، ويدفع عنهن كل خاطر الإغراء، أو التهديد، أو الإرغام، فكأنه يُضاف إلى ما قُلناه في سر قوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ وعدم توجيه الخطاب من المولى إليهنّ مباشرةً، ويُضاف إلى هذا -أي تأكيد حرية الاختيار- تقديم المتاع على التسريح، لأن التسريح هو الطلاق، والتمتيع إعطاء المتعة، وتقديم المتاع على التسريح يكاد يكون ضربًا من الإغراء، وقد جاءت في الآيات المقابلة: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾، فذكر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قد أعدّه ذو الجلال بنفسه، وهو وعدٌ أيّ وعد، ولم يذكر في اختيار الدنيا وزينتها وعيدًا، أي لم يقل: فإن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فإن الله أعدّ لكنّ عذابًا عظيمًا، وذلك لشدة الاحتياط والمحافظة على حرية الاختيار"[5].

لقد "جاء الأمر بالتجرد والتخيير في بيت النبوة ليكون مثلاً وتأديبًا لكافة الناس"[6].

---

١ التحرير والتنوير، ٢١/٣١٧.

٢ نفسه، ٢١/٣١٧-٣١٨.

٣ نظم الدرر، ١٥/٣٣٨-٣٤١.

٤ ينظر: دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١١٤.

٥ من أسرار التعبير القرآني، ٢٤٩.

٦ نفسه، ٢٦٠-٢٦١.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ لقد "تولى الله خطابهنّ بعد أن أمر رسوله بتخييرهنّ، فخيّرهنّ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فخاطبهنّ ربُّهنّ خطابًا؛ لأنهنّ أصبحن على عهدٍ مع الله –تعالى– أن يُؤتيهنّ أجرًا عظيمًا. وقد سمّاه عمر عهدًا، فإنه كان كثيرًا ما يقرأ في صلاة الصبح سورة الأحزاب، فإذا بلغ هذه الآية رفع بها صوته، فقيل له في ذلك، فقال: "أذكّرهنّ العهد". ولمّا كان الأجر الموعود منوطًا بالإحسان أُريد تحذيرهنّ من المعاصي؛ بُلوغًا بهنّ إلى مرتبة الملَكية مبالغةً في التحذير؛ إذ جعل عذاب المعصية على فرض أن تأتيها إحداهنّ عذابًا مضاعفًا.

وناداؤهنّ للاهتمام بما سيُلقى إليهنّ"[1]، والغرض من النداء هنا هو التهديد[2].

وناداهنّ بوصف ﴿نساء النبي﴾ ليعلمن أنّ ما سيُلقى إليهنّ خبرٌ يناسب علوّ أقدارهنّ، والنساء هنا المراد به الحلائل"[3].

إن توجيه الخطاب إليهنّ –رضوان الله عليهنّ– تلوينٌ للخطاب[4]؛ لإظهار الاعتناء

---

١ التحرير والتنوير، ٢١/ ٣١٨.

٢ ينظر: دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٢٠٢.

٣ التحرير والتنوير، ٢١/ ٣١٨.

٤ من أفضل ما يمكن أن يعطي مفهوما واضحا لتلوين الخطاب قول ابن كمال باشا في رسالته: "فهذه رسالةٌ مرتبةٌ في بيان تلوين الخطاب، وتفصيل شعبه التي منها الالتفات الذي هو أسلوبٌ متكاثر الفوائد، متناثر الفرائد.

والمراد من الخطاب هنا: توجيه الكلام نحو السامع.

اعلم أنهم يحسنون قِرى الأشباح، فيخالفون فيه بين لونٍ ولون، وطعمٍ وطعم، وكذلك يحسنون قِرى الأرواح، فيُخالِفون فيه أيضًا بين أسلوبٍ وأسلوب، وإيرادٍ وإيراد، بل اعتناؤهم بهذا القِرى أكثر، واهتمامهم فيه أوفر.

ومرجع التلوين المذكور إلى تغيير الأسلوب"، وذلك قد يكون بالعدول عن الخطاب الخاص إلى الخطاب العام. تلوين الخطاب لابن كمال باشا، ٣٣٤.

وقد ذكر ابن كمال باشا "أن تلوين الخطاب قد يكون بأحد هذه الأمور:

١–العدول عن الخطاب الخاص إلى الخطاب العام...

٢–صرف الخطاب عن مخاطَب إلى مخاطَب...

٣–العدول عن صيغة من الصيغ الثلاث وهي: صيغة المتكلم، وصيغة الخطاب، وصيغة الغيبة، إلى الأخرى منها...

٤–الالتفات: وذكر أنه: تغيير أسلوب الكلام بنقله من إحدى الصيغ الثلاث المذكورة سابقا إلى الأخرى؛ بشرط أن يكون الكلام بعد النقل مع مَن كان قبله...

٥–تغيير الأسلوب دون نقل". نفسه، ٣١٠–٣١٢.

بنُصحهنّ[1]، ولأنهنّ قد ارتفعن إلى مستوى الخطاب المباشر بعد أن اخترن الله ورسوله والحياة الآخرة[2]، وفيه تطريةٌ للنشاط، وإيقاظٌ للإصغاء الدقيق[3].

"يتجه الخطاب هنا من الله –سبحانه وتعالى– إلى أمهات المؤمنين بلا واسطة، وقد قال في الآية الأولى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾، فخاطبهنّ بواسطة النبي –عليه السلام–، وذلك مُؤذنٌ بخطورة الأمر الذي جاء الخطاب من أجله، فإن موضوع هذا الخطاب يعالج قضيةً من أعضل القضايا التي تعاني منها المجتمعات الإنسانية، وهي قضية الأخلاق وسلوك النساء؛ ولذلك آثر هنا لفظ النساء، ولم يُذكرن بلفظ الأزواج، كما قال هناك: ﴿ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ... ﴾ والفاحشة التي يُضاعف العذاب لهن من أجلها من المُحال أن تقع في بيت النبوة، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، مبالغةً في التنفير من هذه الفاحشة، ومبالغةً في بيان خطرها، وهو كلامٌ يُلوّح بسوط العذاب، وبالغ النقمة والغضب على أرباب الخطيئة في الأرض"[4].

في قوله: ﴿ نساء النبي ﴾ اكتسبن صفة الشرف هذه بانتسابهنّ إليه –صلى الله عليه وسلم– سواء بعقد الزوجية، أم بالتسرّي، أم بالبنوّة[5]، ونلن الشرف بذلك لا بغيره. وهذا النداء يستلزم منهنّ –رضوان الله عليهنّ– أن يتخلّقنَ بأخلاقه –صلى الله عليه وسلم– وبما هو لصيقٌ بمقام النبوّة، لائقٌ بشرفها وعُلوّها، وأن ينأين عن كلّ ما ناهض ذلك أو ألبس به ريبةً أو خالطهُ بنقصٍ. وفي اختيار هذا الوصف الذي عُبِّر عنه برابط النِّسبة بالإضافة[6] فوائد:

---

١ ينظر: روح المعاني، ٢١/١٨٤.

٢ ينظر: تفسير الشعراوي، ١٩/١٢٠٠٨.

٣ ينظر: تلوين الخطاب لابن كمال باشا، ٣٦٨.

٤ من أسرار التعبير القرآني، ٢٦٣.

٥ ينظر: تفسير الرازي، ٢٥/٢٠٨.

٦ أُضيفت كلمة (نساء) إلى (النبي) –ﷺ–، وهذه الإضافة في المبنى تناسب الإضافة في المعنى؛ أي إنّ المرأة تنتقل من الدلالة عليها والإشارة إليها ببُنوّتها لأبيها إلى الدلالة عليها والإشارة إليها بدخولها في عِطف زوجها، واشتماله بها. ينظر: لسان العرب، مادة (ضَيَفَ).

١-وجوب تخلُّق زوجات النبيّ -صلى الله عليه وسلم- بآداب النبوة أمرًا ونهيًا وحُرمةً؛ لأنّهنّ في عصمته -صلى الله عليه وسلم-، وبذلك صِرنَ جزءًا منه، يُمثّلنه في دينه وخُلُقه وقوله وأمره كلّهن، وعلى هذا ينبغي أن تكون كلّ زوجةٍ مؤمنةٍ لزوجها الصالح.

٢-اختيار الله لهنّ للدخول في عِصمته -صلى الله عليه وسلم- لمزية فيهنّ على غيرهن؛ أي إنهن قادرات أكثر من غيرهن على الميل إلى شمائله -صلى الله عليه وسلم- النبوية، والتخلّق بها. يجتهدن في ذلك، فهو ميدان تنافس.

٣-أنّ المرأة حين تدخل في عصمة الزوج الصالح تجعل من خُلُقه ودينه وسُمعته ومكانته منطلقاً لمنهجها في حياتها كلّها بما يشمل سلوكها وقولها، ويبدو -والله أعلم- أنّها تُقدّمه على نفسها في الرغبات والغايات؛ فتقيس الأمور بمقياسه أولاً، ثم ترى ما في نفسها، فتأخذ منه ما لا يتعارض مع مقياس زوجها.

ويؤازر هذا المعنى قوله -جلّ جلاله- في السورة نفسها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]. وقال: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خروجًا من قول: المؤمنات؛ لأن المؤمنات أشد حصرا وأخصّ؛ بمعنى أنها من المسلمات المؤمنات في عقيدتها، وأما (نساء المؤمنين) فهُنّ من المؤمنات المسلمات ومن الكتابيّات: النصرانيات واليهوديات اللائي أحلّ الله زواج المسلم بهن؛ وبلاغة ذلك أنّ المرأة في بيت الزوجية عليها أنْ تتخلّق بأخلاق دين زوجها وإن لم تكن على دينه، وأنْ تجتنب النواهي ومظانّ الريبة؛ لأنها في عصمته، وترجع عليه بما يصدر عنها من سلوك وقول وخُلُق، فتُمثّله وتدلّ بذلك على دينه وخُلُقه وأدبه في أهله الذين هُم خاصّته.

إن الخطاب في الآيات السابقة درجتان:

١-الخطاب الذي فيه لِين وتخيير لا يجرح نفس زوجاته -صلى الله عليه وسلم- جعله الله -جلّ جلاله- على لسانه -صلى الله عليه وسلم-. (الأحزاب:٢٨-٢٩)

---

١ الأحزاب:٥٩.

٢-الخطاب الذي فيه تهديد وتنبيه وتحذير من الوقوع في المعاصي المشينة لم يجعله الله -جلّ جلاله- على لسانه -صلى الله عليه وسلم- ربّما حفاظًا على الأنفس الشريفة من تصدّع قارورة المودة الزوجية، واتقاد حرارة العتب، وفورة لُجّة الاستنكار، والظنّ بأنه شكٌّ منه -صلى الله عليه وسلم- في صدقهنّ -عليهنّ رضوانه وسلامه-؛ مما يُعهَد فيه أن يبقى مؤثّرًا في النفس مدةً من الزمن يُراجعها فيها، فينغّص الصفو، ويستدعي الكدر. (الأحزاب:٣٠-٣٤) وهذا فيه تهيئة لهن لما سيأتي من شدائد.

﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ...﴾ "ولما كان الله -سبحانه- قد أمضى حكمته في هذه الدار في أنه لا يُقبل قولٌ إلا ببيان، قال -سبحانه- متهددا على ما قد أعاذهن الله منه. فالمراد منه بيان أنه رفع مقاديرهن، ولذلك ذكر الأفعال المسندة إليهن اعتبارًا بلفظ ﴿مَن﴾ والتنبيه على غلط مَن جعل صحبة الأشراف دافعةً للعقاب على الإسراف"[١].

"نلحظ أن الحق -سبحانه- لم يبدأ الكلام مع نساء النبي بقوله مثلا: من يتق الله منكن، إنما بدأ بالتحذير من إتيان الفاحشة؛ لأن القاعدة الشرعية في التقنين والإصلاح تقوم على أن (درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة)"[٢].

"وقال قوم: الفاحشة إذا وردت معرّفة، فهي الزنا واللواط. وإذا وردت منكّرة، فهي سائر المعاصي، وإذا وردت منعوتة بالبيان، فهي عقوق الزوج وفساد عشرته"[٣]. وفي استعمال وصف ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ سر بلاغي، وهو تعظيم هذه الفاحشة[٤] وتشخيصها وكأنها تملك قوّة تبيين نفسها من شدّة قبحها وفجورها. "والتعريف في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ تعريف العهد، أي العذاب الذي جعله الله للفاحشة"[٥] دون إنقاص منه مراعاةً لفضلهنّ.

---

١ نظم الدرر، ١٥، ٣٣٩-٣٤١.

٢ تفسير الشعراوي، ١٩/١٢٠٠٩.

٣ الجامع لأحكام القرآن، ١٧/١٣٦.

٤ ينظر: التحرير والتنوير، ٢١/٣١٩.

٥ نفسه، ٢١/٣٢٠.

ولاستعمال أسلوب الشرط في هذا المقام سرّ، فـ"أما قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ فسياقه سياق زجر، وتهديد، ولذلك تجد اللفظ فيه يحمل أكبر قدر من المعنى المناسب لهذا السياق، وكأنه قال: يُضاعف لها العذاب أضعافًا كثيرةً. وقد جاء الضعف في مقام الثناء والوعد بعطاء الله، فأفاد أكثر من المثلين والثلاثة"[1].

"إن هذا التعبير: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾، والذي نجد فيه تراكب التضاعف –من حيث توكيد يُضاعف بضعفين– لم يقع في القرآن كله إلا في هذه الآية، وقد ذكر الضعف والضعفين في مواضع أخرى من القرآن. أما أن يذكر هذا التركيب المؤكَّد والمتراكب (يُضاعف ضعفين) فذلك خاص بهذا الموضع، ولذلك نُحمّله ما نشاء من المبالغة والدلالة على نهاية الوعيد والتشديد.

والآية الكريمة تشير إلى فضل أمهات المؤمنين، وكلما أوغل الأسلوب في المبالغة بالوعيد على حدّ ما بيّنا وصف من هذا الوجه نفسه المبالغة في بيان أقدارهن –عليهن رضوان الله–.

ومرجع ذلك إلى أن عقوبة الإثم تتأثر تأثّرًا واضحًا بأقدار فاعليها، فكلما صعد في درج الفضل والكمال، كان هويه إلى المعصية أوضح وهو بالعقاب والزجر أولى"[2]؛ فـ"على قدر علوّ المقام يكون الملام، وبقدر النعمة تكون النقمة"[3].

وقد جاءت الأفعال في الآية مضارعة ﴿يأتِ، يضاعف﴾؛ لأن الآية تتحدث عن المستقبل والأمور محتدمٌ فيها الصراع بين المسلمين من جهة والمنافقين والكفّار من جهة، والمنافقون والكفار يحاولون التسلل إلى بيت النبوة والنيل من شرفه؛ لهذا ناسب التعبير بالمضارع الدال على التجدد والتغير.

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٦٧.

٢ من أسرار التعبير القرآني، ٢٦٨.

٣ نظم الدرر، ١٥/ ٣٣٩–٣٤١.

إن التعريف في كلمة ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ "تعريف العهد، أي العذاب الذي جعله الله للفاحشة"[1] كما هو معهود.

وقد "حُذف الفاعل في ﴿يُضَٰعَفْ﴾ وبُني الفعل للمفعول، وأقام المفعول مقام الفاعل تهويلاً للعذاب"[2]، و"قدم الجار والمجرور في لَهَا للاختصاص، وذلك لأن مضاعفة العذاب خاص بهن دون غيرهن –رضوان الله عليهنّ–، لشرفهن وعلو منزلتهن، فما قبح من سائر النساء كان منهن أقبح، فقبح المعصية تبع لزيادة الفضل"[3]. "وأوعدهنّ بتضعيف العذاب وفيه حكمتان: إحداهما أن زوجة الغير تُعذّب على الزنا بسبب ما في الزنا من المفاسد، وزوجة النبي تعذب إن أتت به لذلك ولإيذاء قلبه والإزراء بمنصبه"[4] – صلى الله عليه وسلم–.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: "أي وكان إحباط أعمالهم هينا على الله، لا يخاف الاعتراض من أحد، أو هينا سهلا، وذكر اليسر لكمال الحكم المفضية له، وعدم المانع منه، والمقصود من وراء ذلك كله التهديد والتخويف"[5]. وهذا من باب التذييل المفيد تصوّر المعنى غاية التصوّر مع التأكيد والمبالغة، فهو من أبواب الإطناب التي هذه فائدتها[6]. إن الغاية من الخبر بالجملة الاسمية في هذه الآية الكريمة هو "الإخبار بالوعيد"[7]، وكذلك التهديد، إذ "أكّد بالمصدر للدلالة على نهاية الوعد والمبالغة"[8].

---

١ التحرير والتنوير، ٢١/ ٣٢٠.

٢ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٨٩ بتصرف.

٣ نفسه، ١٠٧بتصرف.

٤ تفسير الرازي، ٢٥/ ٢٠٨.

٥ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٧١.

٦ ينظر: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور، ١٥١، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢/ ٢٧٨.

٧ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٧١.

٨ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٧٥.

وقد "قدم الجار والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على خبر كان للاختصاص"[1]. ومن ملاحظة التقابل بين ﴿مَّرَّتَيْنِ وضِعْفَيْنِ﴾ يبدو –والله أعلم– أن ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ تعني أن الأجر يحصل مرة في الدنيا ومرة في الآخرة، في حين أن ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ يكون العذاب في الآخرة مرة واحدة وهو مضاعف.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ وُصلت جملة الشرط هذه بسابقتها لاتفاقهما في الشرطية، ويظهر هنا نوعٌ "من المقابلة الخفية بين قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وقوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾؛ لأن الإتيان بالفاحشة المبينة الظاهرة، في جهارة، وتبجح، لا يكون إلا من قلبٍ غليظٍ جافٍّ خالٍ من معاني الخضوع والخشية والقنوت"[2].

وقد عُطفت ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ على ﴿يَقْنُتْ﴾ "عطف تفسيرٍ له"[3] كما رأى القونوي (ت ١١٩٥هـ)، وليس ذلك بصحيح؛ إذ إن الأصل هو الفصل لكمال الاتصال لو كانت الجملة الثانية مفسِّرة للأولى، ومن المهم ملاحظة ارتباط الفعلين (ب) و(تعمل) بـ(مَن) الشرطية مع اختلافهما في التذكير والتأنيث[4]، فـ"الشرط كما لا يخفى في مجموع الجملتين لا في كل واحدة منهما على الانفراد، ولا في واحدة دون الأخرى؛ لأنا إن قلنا إنه في كل واحدة منهما على الانفراد، جعلناهما شرطين، وإذا جعلناهما شرطين اقتضتا جزاءين، وليس معنا إلا جزاء واحد. وإن قلنا إنه في واحدة منهما دون الأخرى، لزم منه إشراك ما ليس بشرط في الجزم بالشرط، وذلك ما لا يخفى فساده"[5]. والجزاء الحاصل مبني على الجملتين معًا لا على جملة واحدة منهما.

---

١ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٠٦.

٢ من أسرار التعبير القرآني، ٢٧٠.

٣ حاشية القونوي، ٣٤٩–٣٥٠.

٤ ينظر لمزيد من التفاصيل: تفسير البحر المحيط، ٧/ ٢٢٠–٢٢١، والتحرير والتنوير، ٢٢/ ٦.

٥ دلائل الإعجاز، ٢٤٥–٢٤٦.

"وفي تقييد القنوت بقوله: ﴿ لِلَّهِ ﴾: معنى يدعو إلى هذا القنوت ويُلقي عليه فيضًا من نور الجلال، والحب، والميل، ينساب من لفظ الجلالة، ومن لألائه المشرق الوضّاء، وذكر (الرسول) عقب لفظ الجلالة في سياق الخشوع، والطاعة، تقديرٌ لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ورفعٌ لمنزلته، وكأنّ خشيته جزءٌ من خشية الله"[1].

"ينظر الإمام البقاعي إلى الفرق بين لفظ ﴿ يَقْنُتْ ﴾ ولفظ ﴿ تعمل ﴾، فيجد الأول قد نظر إلى لفظ ﴿ مَن ﴾، فجاء على التذكير، والثاني قد نظر إلى معنى ﴿ مَن ﴾ فجاء على التأنيث، ويُفسّر ذلك بأن القنوت عمل من أعمال القلب، ويمكن للنساء أن يبلغن فيه الغاية التي يبلغها الرجال، فلذلك جِيء معه بضمير المذكر الذي لحظ لفظ مَن ، أما العمل الذي هو من عمل الجوارح، فإن طاقة المرأة فيه لا تبلغ طاقة الرجل، فهي مهما عالجت من العمل، وشقّت على نفسها فيه لن تبلغ نهاية ما يبلغ الرجل، الذي يشق على نفسه، ولذلك جاء في فعل العمل بالتأنيث، ليُشير إلى هذه الحقيقة"[2].

إن في استعمال لفظ (الأجر) في الوعد سرًا، ففيها "رمزٌ آخر إلى الإعزاز والتكريم، وكأن ما يأخذن من هذا الوفر ليس عطاءً، وإنما هو أجرٌ مستحقٌّ لهنّ، على طيب ما قدّمن من الخير"[3]. "وإنما ضُوعف أجرهن لطلبهن رضا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بحسن الخُلق، وطيب المعاشرة والقناعة، وتوفرهن على عبادة الله والتقوى"[4].

"وفي إضافة الأجر إلى ضميرها إشارةٌ إلى تعظيم ذلك الأجر بأنه يناسب مقامها، وإلى تشريفها بأنها مستحقّةٌ ذلك الأجر"[5]. "ومضاعفة الأجر لهن على الطاعات كرامة

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٧٠.

٢ نفسه، ٢٧٥–٢٧٦، وينظر: نظم الدرر، ١٥/٣٤٢–٣٤٣.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٧٢.

٤ الكشاف، ٥/٦٥.

٥ التحرير والتنوير، ٢٢/٥.

لقدرهن، وهذه المضاعفة في الحالين من خصائص أزواج النبي –صلى الله عليه وسلم– لعظم قدرهن؛ لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة فضل الآتي بها"[1].

وقد توالت الأفعال المضارعة ﴿ يقنت، تعمل، نؤتها ﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار في ذلك. وجاء الفعل الماضي ﴿ أعتدنا ﴾ في بيان الجزاء للدلالة على أنه أُعدّ وانتهى وتقرر، فهو نعيمٌ مقيم في الآخرة؛ إذ إن التجدد والحدوث متصل بالأمور الدنيوية، في حين تتسم الأمور الأخروية بالثبات.

وفي استعمال وصف ﴿ كَرِيمًا ﴾ للرزق سرٌّ بلاغي؛ فقوله: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ "وُصف رزق الآخرة بكونه كريمًا، مع أن الكريم لا يكون إلا وصفًا للرزّاق إشارةً إلى معنًى لطيف، وهو أن الرزق في الدنيا مقدَّر على أيدي الناس، التاجر يسترزق من السوقة، والمعاملين والصناع من المستعملين، والملوك من الرعية، والرعية منهم، فالرزق في الدنيا لا يأتي بنفسه، وإنما هو مسخرٌ للغير يمسكه ويرسله إلى الأغيار. وأما في الآخرة، فلا يكون له مرسل وممسك في الظاهر، فهو الذي يأتي بنفسه، فلأجل هذا لا يُوصف في الدنيا بالكريم إلا الرزّاق، وفي الآخرة يُوصف بالكريم نفس الرزق"[2]. وجاء (رزق) ووصفه نكرتين؛ لإطلاق الرزق وتفخيمه وتعظيمه وأنه غير محصور ولا محدود.

ويمكن القول في سر تقديم آية الوعيد على آية الوعد: "ولما قدّم درء المفاسد الذي هو من باب التخلّي، أتبعه جلب المصالح الذي هو من طراز التحلّي"[3]، وفي هذا أن الإسلام يُعنى بطهارة القلب، واليد التي يُعدها لتعمير الأرض والعمل الصالح، حتى تكون عمارة لا دنس فيها، ولا ضلال"[4].

---

١ نفسه، ٢٢/٥–٦.

٢ تفسير الفخر الرازي، ٢٥/٢٠٨–٢٠٩.

٣ نظم الدرر، ١٥/٣٤١–٣٤٢.

٤ من أسرار التعبير القرآني، ٢٧٥.

وبشأن المقابلة بين البناء للمعلوم والبناء للمفعول بين الآيتين في الجزاء، يمكن النظر إلى "الفرق بين قوله في جزاء الفاحشة: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ بعدم تسمية الفاعل، وإشارة وراء هذا العذاب أن العذاب يسقط على هذه النفس من حيث لا تدري، وكأنها تُرجَم به من وراء الغيب، ثم قال في جزاء القنوت والعمل الصالح: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾، فأسند الإتيان إلى ذاته الشريفة، ليكون إتيانًا جذلاً، وعطاءً وفرًا، وماذا تقول في عطاءٍ تمتد به يد الوجود كله من عطائها"[1]. والفعل الذي لم يُسمَّ فاعله "يدل على العناية بالتهويل بالعذاب بجعله عمدة الكلام، وصاحب الجملة بإسناد الفعل إليه، وذلك كله إشارة إلى أن الأمور الكبار صغيرة عنده –سبحانه– لأنه لا يضره شيء ولا ينفعه شيء"[2].

هذا "مع لطيفة وهي أن عند إيتاء الأجر ذُكر المُؤتي وهو الله، وعند العذاب لم يُصرّح بالمعذِّب فقال: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ إشارة إلى كمال الرحمة والكرم، كما أن الكريم الحي عند النفع يُظهر نفسه وفعله، وعند الضر لا يذكر نفسه"[3]. "وأسند فعل إيتاء أجرهن إلى ضمير الجلالة بوجهٍ صريح تشريفًا لإيتائهن الأجر؛ لأنه المأمول بهن، وكذلك فعل ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾"[4]؛ تشريفًا للأجر الذي يعدّه رب العزة والجلال بنفسه تكريما لهنّ –رضوان الله عليهن–. "وصيغة المضي هنا للتنبيه على تحقق وقوعه"[5]؛ أي وقوع الوعد. "ومجرد بناء الفعل (يضاعف) للمفعول يدل على رحمة الله ولطفه في العبارة، فالحق –سبحانه– يحب خلقه جميعا، ويتحبب ويتودد إليهم، ويرجو من العاصي أن يرجع"[6].

---

١ نفسه، ٢٧١. بتصرف.

٢ نظر الدرر، ١٥/٣٣٩–٣٤١.

٣ تفسير الفخر الرازي، ٢٥/٢٠٨–٢٠٩.

٤ التحرير والتنوير، ٢٢/٥.

٥ حاشية القونوي، ٣٥٠، وينظر: التحرير والتنوير، ٢٢/٦.

٦ تفسير الشعراوي، ١٩/١٢٠١٤ بتصرف.

وقد "قدم الجار والمجرور ﴿ لها ﴾ للاختصاص، وذلك لأن مضاعفة العذاب خاصة بهن دون غيرهن؛ لشرفهن وعلوّ منزلتهن، فما قبُح من سائر النساء كان منهنّ أقبح، فقُبح المعصية تبع لزيادة الفضل"[1].

وبملاحظة المقابلة بين خاتمة الآيتين "انظر إلى قوله في آية الوعيد: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾، وكيف كانت هذه الجملة وكأنها دمدمة في هذا الوعيد، فمضاعفة العذاب، والنكال، يسير على المنتقم العزيز، ويقول البقاعي في هذه الجملة: وهي عبارةٌ ناظرةٌ "إلى مقام الجلال، والكبرياء، والعظمة"[2].

ثم قابل هذا في الوعد: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾، وانظر إلى هذا الرزق الكريم الذي أعدّه صاحب الجلال والكبرياء والعظمة والسلطان، أعدّه بذاته وجلاله، وتأمّل ما وراء ذلك من التقدير والتكريم، ثم قُل: لماذا لم يقل: يُضاعف لها الثواب ضعفين؟ كما قال هناك: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾؟ لتعلم أن وراء ذلك رمزًا ذكيًا، فإن مضاعفة الثواب ... ليست خاصة بأهل بيت النبوة، ولكن بخلاف مضاعفة العقاب فإنها خاصة بهم، فلو قال: يُضاعف لها الثواب ضعفين، لم يكن ذلك ظاهرًا في التكريم، لأن الله يُضاعف ثواب الصالحين جميعًا، ولهذا جاء قوله: ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾، للدلالة على الخصوصية، وفيه أيضًا إشارة إلى أن الله يعطي الأجر الوفير مرة، ثم يستأنف العطاء الوفير مرة ثانية، وهذا دالٌّ على التكريم الجميل"[3].

وفي قوله –تعالى–: ﴿ ضعفين ﴾ "أكّد بالمصدر للدلالة على نهاية الوعيد والمبالغة فيه"[4].

---

١ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٠٧.

٢ نظم الدرر، ١٥/٣٣٩–٣٤١.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٧١–٢٧٢.

٤ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٧٥.

"وانظر إلى المقابلة الحسنة الواضحة بين قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾، وقولـه: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾.

انظر إلى سياق الوعيد، وسياق الوعد، وكيف تزاحمت الكلمات الشديدة، والمخيفة في الآية الأولى، فجاءت فيها: الفاحشة المبينة، وما لها من وقعٍ بشعٍ، وقوله: العذاب، وما وراءه، من إيجاع، وتنكيل، وإهانة، وقوله: (يُضاعف ضعفين) وما يفيده من تراكب ألوان العذاب، ومضاعفاتها، التي لا تتناهى وما وراء ذلك من غضب ممدود، ثم انظر إلى الكلمات الوضيئة في سياق الوعد، تجد القنوت، وما وراءه من شفافيةٍ باصرةٍ وضّاحةٍ، والله والرسول، وما وراء ذلك من سكينة القلب، وقرار النفس، ثم تجد العمل الصالح، والرزق الكريم، وكلها كلماتٌ تبعث في النفس معاني الرضا، والطمأنينة، وتملأ القلب شعوراً بالخير والأمل"[1].

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ إن نداء أمهات المؤمنين مباشرةً بِـ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ هو تنويهٌ وثناءٌ عليهنّ –رضي الله عنهنّ–[2]، فـ"لما كان لكل حق حقيقة، ولكل قول صادق بيان، قال مؤذنًا بفضلهن: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي الذي أنتن أعلم الناس بما بينه وبين الله من الإنباء بدقائق الأمور وخفايا الأسرار وما له من الزلفى لديه"[3].

و"يتكرر فيه النداء إلى أمهات المؤمنين، فيؤكّد بهذا التكرار أهمية الغرض الذي يُساق من أجله الحديث، وهو تنقية الأخلاق، وتهذيب السلوك، ويتكرر هنا حرف النداء الذي يُستعمل في المنادى البعيد، ليكون امتداد الصوت مُؤذنًا بالبلاغ، والذي ينادي –

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٧٠–٢٧١.

٢ ينظر: نفسه، ٢٧٧.

٣ نظم الدرر، ١٥/٣٤٣–٣٤٤.

سبحانه- قريبٌ من كلّ مُنادى"[1]، أي "ليمتد الصوت بالبلاغ على سائر العصور، لتتحلى النساء بهذه الأخلاق الفاضلة"[2]. وقد "أُعيد خطابهن من جانب ربهن، وأعيد نداؤهن للاهتمام بهذا الخبر اهتماما يخصه"[3]؛ فالغرض من النداء هو بيان فضلهنّ -رضوان الله عليهنّ-[4].

وقوله -تعالى-: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ "ثناءٌ عليهنّ؛ لتميّزهنّ على سائر النساء"[5]، و"المراد بهذا التهييج والإلهاب؛ حيث جعل طلب الدنيا والميل إليها كسائر النساء مما يخرج عن التقوى، ومقامهن لا يسمح بهذا"[6].

وهناك سرٌّ بلاغيٌّ في استعمال لفظ (نساء)؛ فـ"لا زالت الآيات تذكر أمهات المؤمنين بلفظ النساء؛ ليكون هذا اللفظ وحيًا إلى نساء الأرض، وإلى أنهنّ -من وراء أمهات المؤمنين- يتّجه إليهنّ الخطاب مهذّبًا وموجّهًا، والدرس -في هذه الآيات- يشرح وسيلة الصيانة، والعفاف"[7].

وفي الآية إيجاز بحذف جملة؛ إذ حذف جواب الشرط إيجازًا لدلالة ما تقدم عليه، والمعنى: "إن اتقيتن الله فلستُنّ كأحد"[8]. "وأحد: اسم بمعنى واحد"[9]، يستوي فيه

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٧٦-٢٧٧.

٢ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٢٢٤.

٣ التحرير والتنوير، ٦/٢٢.

٤ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٢٠٢.

٥ نفسه، ٧٢.

٦ نفسه، ٧٣، بتصرف.

٧ من أسرار التعبير القرآني، ٢٧٦-٢٧٧.

٨ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٢٥٣.

٩ التحرير والتنوير، ٦/٢٢.

المذكر والمؤنث[1]، "ونفي المشابهة هنا يُراد به نفي المساواة، مكنّى به عن الأفضلية على غيرهن"[2].

إن فضل أمهات المؤمنين –رضي الله عنهنّ– على نساء الأرض فضلٌ ثابتٌ مطلق، ليس مشروطًا بالتقوى، وإنما جاء اشتراط التقوى من باب التنويه بهنّ وبمنزلتهنّ العالية عند الله، والثناء عليهنّ –رضي الله عنهنّ–[3]. "والتقييد بقوله ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ ليس لقصد الاحتراز عن ضد ذلك، وإنما هو إلهابٌ وتحريض على الازدياد من التقوى... وفعل الشرط مستعمل في الدلالة على الدوام، أي إن دمتن على التقوى، فإن نساء النبي –صلى الله عليه وسلم– متّقيات من قبل، وجواب الشرط دل عليه ما قبله"[4]. وإنما ذلك من باب التهييج والإلهاب؛ لنبذ الدنيا والإقبال على كمال الطاعة والتقوى[5].

لقد "فُرّع على تفضيلهن وترفيع قدرهن إرشادهن إلى دقائق من الأخلاق قد تقع الغفلة عن مراعاتها لخفاء الشعور بآثارها، ولأنها ذرائع خفية نادرة تفضي إلى ما لا يليق بحرمتهن في نفوس بعضٍ ممن اشتملت عليه الأمة، وفيها منافقوها"[6].

والذي يبدو أن معنى ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ "إن استقبلتنّ أحدًا فلا تخضعن. واتقى بمعنى: استقبل معروف في اللغة... ويكون هذا المعنى أبلغ في مدحهن؛ إذ لم يعلق فضيلتهن على التقوى، ولا علّق نهيهنّ عن الخضوع بها؛ إذ هنّ متّقياتٌ لله في أنفسهنّ"[7].

جاء النهي عن الخضوع بالقول بعد الثناء على أمهات المؤمنين، "والله –تعالى– لما منعهن من الفاحشة، وهي الفعل القبيح منعهن من مقدماتها، وهي المحادثة مع الرجال

---

١ ينظر: الكشاف، ٦٥–٦٦.

٢ التحرير والتنوير، ٧/٢٢.

٣ ينظر: نظم الدرر، ٣٤٣/١٥–٣٤٤، ومن أسرار التعبير القرآني، ٢٧٩–٢٨٠.

٤ التحرير والتنوير، ٧/٢٢.

٥ ينظر: روح المعاني، ٥/٢٢.

٦ التحرير والتنوير، ٨/٢٢.

٧ تفسير البحر المحيط، ٢٢٢/٧.

والانقياد في الكلام للفاسق"[1]. "وقوله بعد ذلك: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ كلامٌ واردٌ مورد الإشارة والتهيّج؛ لأنهنّ مبرّءاتٌ عن التخضّع بالقول، ومُلاينة الحديث للغرباء، ووراء هذه الإشارة نهيٌ مؤكّدٌ لنساء المسلمين عن الخضوع والمُلاينة، وانظر إلى ارتباط التقوى بالنهي عن التخضّع، ومُلاينة الحديث، وإشارة هذا إلى أن مُلاينة الحديث بين الرجال والنساء دليلٌ على أنّ مهابة الحق وجلال الدين قد سقط من القلوب، ثم انظر إلى موقع هذه الجملة: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ بعد الثناء البالغ في قوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وإشارة ذلك إلى أنّ منزلتكنّ السامية عند الله ليس فيها غناءٌ عن التذكير، والإثارة، للاستمساك بمُثل الخير، وملاحظة النفس، وأخذها على الطريق القويم، وفيه قرع العصا لنساء الأرض، من جهة أنّ هذا الأسلوب الحاسم في النهي عن التّخضّع والملاينة، وربطه بالتقوى، قد ورد موجَّهًا إلى الطاهرات، بعد بيان فضلهنّ على النساء جميعًا، فماذا يكون الحال بالنسبة لغيرهنّ؟ هذا واضحٌ حين تكون الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ واقعةً في جواب الشرط"[2].

وقد جعل الزمخشري (فلا تخضعن بالقول) جوابا للشرط ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾، فالشرط يبدأ بعد علامة الوقف الجائز على (النساء) قبلها حيث تم المعنى السابق، وبدأ معنى جديد، وقد قُرئ (يَطمعْ) "بالجزم، عطفًا على محل فعل النهي، على أنهن نُهين عن الخضوع بالقول. ونهى المريض القلب عن الطمع، كأنه قيل: لا تخضعن فلا يطمع. وعن ابن محيصن أنه قرأ بكسر الميم، وسبيله ضمّ الياء مع كسرها وإسناد الفعل إلى ضمير القول، أي: فيُطمع القولُ المريبَ"[3].

---

١ تفسير الفخر الرازي، ٢٥/٢٠٩-٢١٠.

٢ من أسرار التعبير القرآني، ٢٧٩-٢٨٠.

٣ الكشاف، ٥/٦٥-٦٦.

وفي ذلك "دليل على أن على المرأة الاحتراز من كل ما دعا إلى شهوتها، والفتنة عليها"[1]. والنهي في ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ "يفيد حرمة ملاينة الأجانب في القول"[2]. فالقرآن "يوجّه النهي الموعد إلى الرجل ليواجه في نفسه وسوسة الجنس، بالقطع والحسم، بقوله: ﴿فيطمع﴾ -بالسكون، بعد ما وجّه النهي إلى المرأة، وقال: ﴿فلا تخضع﴾"[3]. و"قول: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ أي في الخيانة ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾؛ أي فساد وريبة، والتعبير بالطمع للدلالة على أن أمنيته لا سبب لها في الحقيقة؛ لأن اللين في كلام النساء خُلُقٌ لهنّ لا تكلف فيه، فأُريد من نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- التكلف بالإتيان بضده"[4]. وقد قال بعض أهل التأويل: إن المقصود هو المنافق[5].

"والمرض: حقيقته اختلال نظام المزاج البدني من ضعف القوة، وهو هنا مستعار لاختلال الوازع الديني مثل المنافقين ومَن كان في أول الإيمان من الأعراب ممن لم ترسخ فيه أخلاق الإسلام، وكذلك مَن تخلقوا بسوء الظن، فيرمون المحصنات الغافلات المؤمنات....

وانتصب ﴿يطمع﴾ في جواب النهي بعد الفاء؛ لأن المنهيّ عنه سببٌ في هذا الطمع.

وحُذف متعلق ﴿فَيَطْمَعَ﴾ تنزهًا وتعظيما لشأن نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- مع قيام القرينة"[6].

"وعطفُ ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ على ﴿لا تخضعن بالقول﴾ بمنزلة الاحتراس لئلا يحسبن أن الله كلفهن بخفض أصواتهن كحديث السرار"[1]. وهو أيضًا "إشارة إلى أن

---

١ نكت القرآن، المجلد٢، ٣/٦٥٣.

٢ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٨١.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٨٢.

٤ نظم الدرر، ١٥/٣٤٣-٣٤٤ بتصرف.

٥ ينظر: تفسير الطبري، ١٩/٩٥.

٦ التحرير والتنوير، ٢٢/٩.

ذلك ليس أمرًا بالإيذاء والمنكر، بل القول المعروف وعند الحاجة هو المأمور به لا غيره"[٢].

و"يمكن حمل الأمر في هذه الآية على الوجوب أو الندب"[٣]. وجملة ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ تذييل[٤]، "وللتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحا، والمقصد انفتاحا... فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه"[٥]، وهو قسمان: قسم "يُؤتى به للتوكيد والتحقيق، وقسم يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله"[٦]. وعلى الرغم من أنه يُفهَم من السياق أن الأمر بأن يقلن قولاً، فلا حاجة ظاهرة لذكر (قولاً) والتصريح بها في غير القرآن؛ لأنها من مقتضى فعل الأمر إلا أنه –تعالى– صرّح بها، وذلك من باب التوكيد وليجري الأمر مجرى المثل في حياة المؤمنات، ولا سيما أن (قولاً) جاءت نكرة مفردة تدل على كل جنسٍ من أجناس القول دون استثناء شيء منها.

وفي قوله –تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ إطناب وذلك بالتفصيل بعد الإجمال، والغاية منه هي إحاطة المعنى بالاستقصاء الذي يؤكده في نفس المتلقي ويثبته أقوى تثبيت[٧].

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ لمّا أمر الله –تعالى– نساء النبي –صلى الله عليه وسلم– "بالقرار، نهاهن عن ضده مبشّعًا له، فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ؛ أي تظاهرن من البيوت بغير حاجة

---

١ نفسه، ٩/٢٢.

٢ تفسير الرازي، ٢٠٩/٢٥–٢١٠.

٣ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٦٥.

٤ ينظر: التحرير والتنوير، ٩/٢٢.

٥ كتاب الصناعتين، ٣٧٣.

٦ تحرير التحبير، ٣٨٧.

٧ ينظر: كتاب الصناعتين، ١٩٠، والمثل السائر، ٢٧٨/٢.

محوجة"[1]. و"قيل: إن التبرج في هذا الموضع: التبختر والتكسر"[2] في المشية، وقيل "هو النياحة"[3]. والأول أقرب للمعنى.

والأمر في قوله: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ للوجوب[4]، وهو "حجة في لزوم المرأة بيتها، وترك البراح عنه فيما لا يعنيها"[5]. و"قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم (وقَرنَ في بيوتكنّ) بفتح القاف. وقرأ الباقون، وهبيرة عن حفص عن عاصم، (وقِرْنَ) بكسر القاف"[6]. وفتح القاف بمعنى الأمر بالقرار في البيوت، وهو لزوما والسكون فيها، وأما (قِرن) بكسر القاف فقد "قال الفراء: قِرن في بيوتكنّ، هو من الوقار"[7] والسكينة. وقد أُضيفت البيوت إليهن – رضوان الله عليهم – لأنهن مَن يسكنّها، وهي بيوته –صلى الله عليه وسلم–[8].

والنهي في قوله: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ "يقتضي التحريم"[9]، ومن باب الذم "أضاف ﴿تبرج﴾ إلى الجاهلية الأولى، وذلك لما كانت عليه من قبائح وخصائص ذميمة حرّمها الإسلام"[10]، وأكّد بالمصدر ﴿ تَبَرُّجَ ﴾ إمعانا في الذم والتحريم. و"التعريف في ﴿ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ تعريف العرف، أي الجاهلية المعروفة قبل الإسلام الجامعة لتلك الصفات من العري والتبرج"[11]. وقد جاء الإيجاز بِـ"حذف المضافين، والتقدير: ولا تبرجن تبرجا مثل تبرج نساء الجاهلية الأولى"[12].

---

١ نظم الدرر، ١٥/٣٤٤–٣٤٥.

٢ تفسير الطبري، ١٩/٩٧.

٣ نكت القرآن، المجلد٢، ٣/٦٥٤.

٤ ينظر: دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٦٦.

٥ نكت القرآن، المجلد٢، ٣/٦٥٤.

٦ المبسوط في القراءات العشر، ٣٥٨.

٧ لسان العرب، مادة (قرر).

٨ ينظر: التحرير والتنوير، ٢٢/١١.

٩ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب ، ١٨٢.

١٠ نفسه، ١٢٩.

١١ نفسه، ١٤٤.

١٢ نفسه، ٢٥٢.

"وانتصب ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ على المفعول المطلق وهو في معنى الوصف الكاشف أريد به التنفير من التبرج. والمقصود من النهي الدوام على الانكفاف عن التبرج وأنهن منهيات عنه. وفيه تعريض بنهي غيرهن من المسلمات عن التبرج، فإن المدينة أيامئذ قد بقي فيها نساء المنافقين وربما كُنّ على بقية من سيرتهن في الجاهلية، فأُريد النداء على إبطال ذلك في سيرة المسلمات"[1]. ونسبة هذا التبرج إلى الجاهلية فيه تحقير لها، ووصفها بالأولى تحديدٌ لزمنها الدال على وصفها الدقيق وماهيتها الحقيقية، فلا تختلط بغيرها مما لا يُراد[2].

وفي خطاب أمهات المؤمنين –رضوان الله عليهن– في تلك الآية سر، فـ"تبرج المرأة، وانكشافها، وتكسرها حيث يوجد، فهو جاهلية، ومظهر من مظاهرها، وخُلق من أخلاقها، وهذا النهي الحاسم في قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ –وإن كان خطابًا لأمهات المؤمنين– فهو دعوة إلى وجوب تطهير المجتمع المسلم من عوائد الجاهلية، ومطاردة كل مظهر من مظاهرها في حياة المسلمين، ومن توجُّه النهي لأمهات المؤمنين فائدة جليلة هي الإشارة إلى أن هذه الجاهلية قد تتقنّع وتلبس ثوب الزور، حتى يقع فيها خياركم من حيث لا يشعرون"[3].

وفي مجيء الأمر بالصلاة بعد النهي عن التبرج سرٌّ بلاغي، فهو "يشير إلى أن عدم إظهار الزينة، وعدم الملاينة في القول، ليس وحده مقصود الشرع، وإنما لا بد أن يكون وراء هذا الحجاب نقاء، وطهارة، ووضاءة، ونظافة، وخلوٌّ من كل دنس"[4].

كما إن هنالك سرًا بلاغيًا في العطف أو الوصل بين الأمر بالصلاة والنهي عن التبرج؛ "فالصلاة التي هي في الإسلام عماد الدين، وسناده، والتي هي فرقٌ بين المؤمن، والكافر،

---

١ التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٢.

٢ ينظر: نفسه، ٢٢/ ١٢–١٣.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٨٩–٢٩٠.

٤ من أسرار التعبير القرآني، ٢٩١.

والتي لعن الرسول تاركها، وجار تاركها، جاءت في السياق مقترنةً بالنهي عن التبرج، وكأن صيانة المجتمع من دنس الفاحشة، هو ركن في إقامة كيان الأمة، كما أن الصلاة ركن من أركان الإسلام"[1]؛ فـ"لما أمرهن بلزوم البيوت للتخلية عن الشوائب، أرشدهن إلى التحلية بالرغائب، فقال: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾"[2].

والسر في استعمال لفظ ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هو أن "إقامة الصلاة بمعنى تقويمها، والمحافظة على سننها وفضائلها، وهو تعبيرٌ له مغزًى جليل، من حيث إنه يفيد أن المعتبر في هذه الصلاة هو أداؤها أداءً وافيًا، سليمًا، تُحفظ فيه كل فضيلة من فضائلها"[3]. كما إن السر في قوله: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هو أن "في هذا بشارة بالفتوح وتوسيع الدنيا عليهن، فإن العيش وقت نزول الآية كان ضيّقًا عن القوت فضلاً عن الزكاة"[4].

والأمر في قوله –تعالى–: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يُفيد "الدوام والثبات على المأمور به"[5]. وقد "خصّ الصلاة والزكاة بالأمر، ثم جاء الأمر عاما بالطاعة؛ لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات، فمن اعتنى بهما حق العناية جرّتاه إلى ما وراءهما"[6]. والأمر في قوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ للوجوب[7]، والتعريف في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلزَّكَوٰةَ﴾ هو تعريف العهد؛ أي الصلاة المعهودة وكذلك الزكاة المعهودة المعروفة التي لا ينصرف الذهن إلى غيرها.

ومن الأسرار التي تُضاف لما سبق عطف العام على الخاص[8] بهدف التعميم والتثبيت[1]، فـ"قوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ معنى عام يدخل فيه: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ

---

١ نفسه، ٢٩١–٢٩٢.

٢ نظم الدرر، ١٥/ ٣٤٥.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٩٢–٢٩٣ بتصرف.

٤ نظم الدرر، ١٥/ ٣٤٥ بتصرف.

٥ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٧٩.

٦ التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٣.

٧ ينظر: دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٦٧.

٨ ينظر: دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١١٤–١١٥.

﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، كما يدخل فيه: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ...﴾، وغيره مما تقدم، فكأنه ذكر هذه الأشياء جميعًا مرةً ثانية[٢]، وفي هذا التكرار الخفي توكيدٌ وتثبيتٌ لهذه المعاني في القلوب، وله مزيةٌ في فضل الكلام وفصاحته، يعني أن آخر الكلام قد عاد إلى أوّله، واتصل به اتصال الكل بجزئه، ثم إن ذكر طاعة الله بعد هذه الأوامر والنواهي، له مغزًى جليل هو الإشارة إلى فلسفة الإسلام في إقامة السلوك، وتحديد الواجبات والآداب، وتكوين نظام الاجتماع في الأمة المسلمة، على أساس من طاعة الله، ورسوله، وتربية المهابة في القلوب"[٣].

وقد توالى الوصل بين الأمر والنهي، لاتفاقهما في الإنشائية الطلبية، كما جاءت الأفعال المنهي عنها مضارعة ﴿لا تخضعن﴾ و﴿لا تبرجن﴾ وسبب المنع من الخضوع ﴿يطمع﴾ للدلالة على التجدد وإمكان الحدوث في أي مرة من المرات. وقد تكرر في هذه الآية العطف بين ﴿الله﴾ و﴿رسوله﴾ وهو عطف لأسباب شرعية، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– خاتم الأنبياء وهو رسول رب الخليقة، ويتخذ هذا العطف خاصية مميزة في سياق خطاب زوجاته –صلى الله عليه وسلم– بالنص على العلاقة الرابطة بين الله ورسوله، ليستحضرنها دائما في علاقتهن بالله –تعالى– وبرسوله –صلى الله عليه وسلم–.

وهناك سؤالٌ قد يشغل ذهن المتأمِّل، وهو: لماذا جاءت الفضائل بعد الرذائل في خطابه –تعالى– لأمهات المؤمنين –رضوان الله عليهنّ–؟ والجواب: "لما كانت هذه الآيات قد نهت عن الرذائل، فكانت عنها أشرف الفضائل، قال مبينًا أن ذلك إنما هو لتشريف أهل النبي –صلى الله عليه وسلم– لتزيد الرغبة في ذلك مؤكّدًا رفعًا لتوهّم

---

١ ينظر: نفسه، ٢٣٥.

٢ وينظر: نظم الدرر، ١٥/٣٤٥–٣٤٦.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٩٤–٢٩٥.

مَن يتوهّم أن ذلك لهوان أو غير ذلك من نقصان وحرمان: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

لقد تم الفصل بين ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وبين ما قبلها؛ لشبه كمال الاتصال، فقوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ "متصل بما قبله، إذ هو تعليلٌ لما تضمنته الآيات السابقة من أمر ونهي ابتداءً من قوله -تعالى-: يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ الآية. فإن موقع ﴿إِنَّمَا﴾ يفيد ربط ما بعدها بما قبلها؛ لأن حرف (إن) جزء من ﴿إِنَّمَا﴾ وحرف (إن) من شأنه أن يغني غناء فاء التسبب ... فالمعنى أمركن الله بما أمر، ونهاكن عما نهى؛ لأنه أراد لكن تخلية عن النقائص والتحلية بالكمالات. وهذا التعليل وقع معترضا بين الأوامر والنواهي المتعاطفة"[2]، فهو "استئناف بياني مفيد تعليل أمرهن ونهيهن"[3]، فكأنّ سؤالاً دار في ذهن المتلقي: "لماذا أمرت أزواجه -صلى الله عليه وسلم- ونهيتهن وهن ينتسبن إلى أطهر الخلق -عليه الصلاة والسلام-؟ فكان الجواب ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾"[4].

"وفي العبارة تلطف ببيان علة التكليف وغايته. تلطف يشي بأن الله -سبحانه- يشعرهم بأنه بذاته العلية يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم. وهي رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت. وحين نتصور من هو القائل -سبحانه وتعالى- رب هذا الكون. الذي قال للكون: كن. فكان. الله ذو الجلال والإكرام. المهيمن العزيز الجبار المتكبر..حين نتصور من هو القائل -جل وعلا- ندرك مدى هذا التكريم العظيم"[5]؛ "فكل ما تقدم من أوامره ونواهيه لا يُراد به إلا إذهاب الرجس والتطهير، فهي شرائع

---

١ نظم الدرر، ١٥/٣٤٦.

٢ التحرير والتنوير، ٢٢/١٤.

٣ روح المعاني، ٢٢/١٢-١٣.

٤ دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٢١٢.

٥ في ظلال القرآن، ٢٢/٢٨٦٢.

وُضعت لمصلحة هذه الجماعة ولحفظها، من الرجس الذي يُستعمل أساسًا في معنى الاضطراب والقلق"[1].

ومن خصائص ﴿إِنَّمَا﴾ أنها "تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحّته"[2]، كما "أنها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء، ونفيه عن غيره... دفعة واحدة في حال واحدة"[3]. وهذا واقع خطاب أمهات المؤمنين –رضوان الله عليهن– فقد نفت الآية أن يُريد الله بهنّ ضرا أو تضييقا عليهن كما قد يهجس بذلك بعض المنافقين ويُشيعون، وإنما إرادة الله خاصة بتطهيرهن وأهل بيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كلّهم، وفي ذلك تعريضٌ بنجسي الأعراض من المنافقين والكافرين، كما أن في ذلك إثباتًا لصفة الإرادة لله –تعالى– على الوجه الذي يليق بجلاله وعزّته.

وهناك مجموعة من الأسرار البلاغية في قوله –تعالى–: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؛ ومنها: "حذف حرف النداء[4] في قوله: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وهو مُشعرٌ بالتقريب والتكريم، فكأن أهل هذا البيت في حضرة الملك القدوس، وفي المكانة المتسامية، يُخاطَبون خطاب القرب والملاطفة، ومنها أداة القصر التي صدرت بها الجملة الشريفة، وهي تفيد الكلام قدرًا من التوكيد وكأن المعنى: ما يريد الله إلا أن يُذهب عنكم الرجس أهل البيت، فمراد الله –جل جلاله– قد انحسر في إذهاب الرجس عن هذا البيت، وتطهيره، وليس هناك مرادٌ وراء ذلك في شأن من شؤون الخلق؛ أي إن الله –سبحانه– قد أقبل على أهل هذا البيت إقبالاً كاملاً، وهذه زيادة في التكريم، ومبالغة في إظهار عظيم العناية والرعاية... وجاء القصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ التي تفيد أن ما تدخل عليه كأنه شيءٌ مقرر، ومعلوم، لا يسع أحدًا أن ينكره لشهرته

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٩٥–٢٩٦.

٢ دلائل الإعجاز، ٣٣٠.

٣ نفسه، ٣٣٥.

٤ وقيل: إن أَهْلَ ٱلْبَيْتِ منصوبة على المدح. ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٤٥/١٧.

وذيوعه، وكأن قصر مراد المولى –سبحانه– على إذهاب الرجس عن هذه الجماعة وتطهيرها أمر معلوم، لا يدفعه دافع، ولا يخالف فيه عاقل، وناهيك عما وراء هذا من التكريم، ومنها إسناد أفعال الجملة كلها إلى الله، فهو الذي يريد، وهو الذي يُذهب الرجس عنهم، وينقّي قلوبهم ونفوسهم بيده القادرة، وهو الذي يطهرهم بنفسه تطهيرًا... ومنها التعريف باللام في قوله: ﴿ٱلْبَيْتِ﴾، وهو يفيد أنه بيتٌ متعالمٌ مشهور، لا ينصرف الذهن إلى غيره، والإضافة في قوله: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ تفيد التعظيم، والتشريف، أي: يا أهل هذا البيت القائم في العالمين رمز الهداية، والرشاد، والطهر، والنور"[1].

"والتعريف في ﴿ٱلْبَيْتِ﴾ تعريف العهد، وهو بيت النبي –صلى الله عليه وسلم– وبيوت النبي –عليه الصلاة والسلام– كثيرة فالمراد بالبيت هنا بيت كل واحدة من أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم – وكل بيت من تلك البيوت أهله النبي –صلى الله عليه وسلم– وزوجه صاحبة ذلك"[2].

إن "سياق الآية يفيد أن المراد بأهل البيت نساؤه –رضي الله عنهن–، وجاء الضمير مذكرًا في قوله: ﴿عَنكُمُ﴾، و﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ ولم يأتِ مؤنثًا مراعاةً للفظ أهل، والعرب كثيرًا ما يستعملون صيغ المذكر في مثل هذا،... إن اعتبار التذكير هنا أدخل في التعظيم، أو إن المراد بأهل البيت هنا النبي –عليه السلام– ونساؤه –كما سبق–، وجاء الضمير مذكرًا على قاعدة التغليب"[3]. وقد جاء النداء في ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ لطفًا بهم، ومدحًا لهم، وثناءً عليهن، واختصاصًا بهم دون غيرهم[4].

وفي قوله –تعالى–: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ يبدو أن ضميرَي "الخطاب موجهان إلى نساء النبي –صلى الله عليه وسلم– على سَنن الضمائر التي تقدمت. وإنما

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٩٥–٢٩٦.

٢ التحرير والتنوير، ١٤/٢٢، وينظر: نكت القرآن، المجلد٢، ٦٥٥/٣.

٣ من أسرار التعبير القرآني، ٢٩٥–٢٩٧ بتصرف.

٤ ينظر: حاشية القونوي، ٣٥٥، واللباب في علوم الكتاب، ٥٤٧/١٥–٥٤٨، ودراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٢٠٢.

جيء بالضميرين جمع المذكر على طريقة التغليب لاعتبار النبي –صلى الله علية وسلم– في هذا الخطاب؛ لأنه رب كل بيت من بيوتهن، وهو حاضرٌ هذا الخطاب؛ إذ هو مبلّغه. وفي هذا التغليب إيماء إلى أن هذا التطهير لهن لأجل مقام النبي –صلى الله علية وسلم– لتكون قريناته مشابهات له في الزكاء والكمال"[1]. "وفي التعبير بالفعل المضارع دلالة على تجدد الإرادة واستمرارها، وإذا أراد الله أمرا قدّره إذ لا راد لإرادته.

والمعنى: ما يريد الله لكن مما أمركن ونهاكن إلا عصمتكن من النقائص، وتحليتكن بالكمالات، ودوام ذلك؛ أي لا يريد من ذلك مقتا لكن ولا نكاية. فالقصر قصر قلب... وهذا وجه مجيء صيغة القصر بـ﴿إِنَّمَا﴾"[2].

هذا وقد تقدم إذهاب الرجس على التطهير من باب تقديم التخلية من الذنوب على التحلية بالطاعة[3]، واللام في قوله –تعالى–: ﴿لِيُذْهِبَ﴾ زائدةٌ من قبيل الإطناب، والغرض منها التوكيد[4].

إن الرجس والطهارة والإذهاب في الآية الكريمة استعاراتٌ كلها؛ فـ"لما استعار للمعصية الرجس، استعار للطاعة الطهر، ترغيبًا لأصحاب الطباع السليمة والعقول المستقيمة، في الطاعة، وتنفيرا عن المعصية"[5]. "واستعار للذنوب: الرجس، وللتقوى: الطهر؛ لأن عِرض المقترف للمقبحات يتلوث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما المحسنات، فالعِرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة ما يُنفّر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه، ويرغّبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به"[6].

---

١ التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٤.

٢ التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٥.

٣ ينظر: روح المعاني، ٢٢/ ١٢–١٣.

٤ ينظر: دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ٢٣٠، والتحرير والتنوير، ٢٢/ ١٧.

٥ نظم الدرر، ١٥/ ٣٤٦–٣٤٧.

٦ الكشاف، ٥/ ٦٦–٦٧.

"وقوله –تعالى–: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ فيه لطيفة، وهي أن الرجس قد يزول عينًا، ولا يطهر المحل، فقوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾؛ أي يزيل عنكم الذنوب ويطهركم؛ أي يلبسكم خُلع الكرامة، ثم إن الله –تعالى– ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم"[1].

"والرجس في الأصل: القذر الذي يلوث الأبدان، واستعير هنا للذنوب والنقائص الدينية؛ لأنها تجعل عِرض الإنسان في الدنيا والآخرة مرذولا مكروها كالجسم الملوث بالقذر... واستعير التطهير لضد ذلك وهو تجنيب الذنوب والنقائص كما يكون الجسم أو الثوب طاهرا، واستعير الإذهاب للإنجاء والإبعاد"[2]. "وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به"[3]. والتعريف في ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ يدل على استغراق الجنس؛ بحيث يجمع كل المعاني المختلفة لكلمة الرجس[4].

وحين أكّد –تعالى– بالمصدر في قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فإن "المراد به المبالغة في الحفظ والصون والطهارة وإزالة الرجس، فأراد الله بما أمرهن به ونهاهن عنه حفظهن من المعاصي وتطهيرهن من الذنوب"[5]. "وفي التعبير بالفعل المضارع ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ دلالة على تجدد الإرادة واستمرارها، وإذا أراد الله أمرًا قدّره؛ إذ لا رادّ لإرادته"[6].

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ "ويختم هذه التوجيهات لنساء النبي –صلى الله عليه وسلم– بمثل ما

---

١ تفسير الفخر الرازي، ٢٥/٢١٠.

٢ التحرير والتنوير، ٢٢/١٤.

٣ الكشاف، ٥/٦٦–٦٧.

٤ ينظر: دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٤٤–١٤٥.

٥ نفسه، ٦٣، وينظر: نفسه، ٧٥.

٦ التحرير والتنوير، ٢٢/١٥.

بدأها به.. بتذكيرهن بعلو مكانتهن، وامتيازهن على النساء، بمكانهن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وبما أنعم الله عليهن، فجعل بيوتهن مهبط القرآن، ومنزل الحكمة، ومشرق النور والهدى والإيمان"[1]. وتتصل هذه الجملة بجُمل الأوامر الإنشائية قبلها لتعطي مفهوم الوجوب.

ومن الأسرار البلاغية أنه –تعالى– "قال: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ ﴾ ولم يقل: واذكرن ما أُنزل؛ لأن المراد إرشاد نساء المؤمنين وراء الأمر الموجه لأمهات المؤمنين، وأهمية ذكر الإنزال في الوعظ، وتهذيب السلوك خاص بمن في هذا البيت. أما أهمية تذكر ما يُتلى، فليس خاصًا بمن في منزل الوحي، ولا بمن في زمنه، وإنما شيءٌ يعم المسلمين جميعًا، في كل عصر ومصر، ويشير موقع الآية في هذا السياق إلى أن ذكره يكشف أمام بصائركم ضباب الضلال الذي يذهب بكم في هُنيّات الطريق، وصيغة المضارع في قوله: ﴿ يُتۡلَىٰ ﴾ تُشعر بأن تلاوته تتجدد في بيوتكم، وأن أنفاس الحق فيه توشك أن تملأ آفاقكم، فاذكروه؛ أي استحضروه في القلوب والضمائر، لتعمر به، فتستقيم على هديه، ولهذا المعنى آثر قوله: ﴿ مَا يُتۡلَىٰ ﴾ على القرآن؛ أي لم يقل: واذكر القرآن؛ لأن ذكر تلاوته في البيوت حثٌّ على التذكر، أي اذكرن صوت الحق الذي تتجاوب أنفاسه في غرفكم، ومضاجعكم"[2].

"ولما كانت العناية بالمتلوّ، بيّنها بإسناد الفعل إليه لبيان أنه عمدة الجملة، فقال بانيًا للمفعول: ﴿ مَا يُتۡلَىٰ ﴾؛ أي يُتابع ويُوالى ذكره والتخلق به، وأشار لهن إلى ما خصّهن منه من الشرف، فقال: ﴿ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أي بواسطة النبي –صلى الله عليه وسلم–"[3]. والفعل المضارع ﴿ يُتۡلَىٰ ﴾ يدل على التجدد والاستمرار، وقد بُني للمفعول؛ لأن التالي قد يكون الرسول –صلى الله عليه وسلم– وقد يكون غيره.

---

١ في ظلال القرآن، ٢٢/٢٨٦٢.

٢ من أسرار التعبير القرآني، ٢٩٩.

٣ نظم الدرر، ١٥/٣٤٧.

وقوله –تعالى–: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ تقريرٌ "لما قبله من الأمر والنهي؛ ولذا أُخّر عنهما"[1]، والأمر للوجوب، أو لتعديد النعمة[2].

وفي قوله: ﴿ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ "لما كان المراد بذلك القرآن، عطف عليه ما هو أعم منه، فقال مبيّنًا لشدة الاهتمام به بإدخاله في جملة المتلو اعتمادًا على أن العامل فيه معروف؛ لأن التلاوة لا تُقال في غير الكتاب: ﴿ وَٱلۡحِكۡمَةِ ﴾؛ أي ويبث وينشر من العلم المزين بالعمل، والعمل المتقن بالعلم، ولا تنسين شيئًا من ذلك"[3]. "وعطف ﴿ الحكمة ﴾ على ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ عطف خاص على عام، وهو ما كان من القرآن مواعظ وأحكاما شرعية"[4]. وقيل: إن المقصود بالحكمة هي السنة[5]. وذلك من قبيل الإطناب الذي يحيط بالمعنى إحاطة تامة من خلال الاستقصاء فيبلغ به غاية البيان ويشبع دلالاته[6]. وربما –والله أعلم– جاء التعبير عن القرآن الكريم بـ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ لأن القرآن نزل منجّما آيات متفرقة، ولم ينزل دفعة واحدة، وربما كان المقصود أحداث وقرائن هي من آيات الله ومعجزاته.

وقد وقع الفصل بين الجملة الإنشائية والجملة الخبرية التالية لها للانقطاع بينهما، والجملة الخبرية اسمية تفيد الثبوت والاستمرار وفيها جاء التأكيد بالاسمية مرتين وبإنّ، ومن خصائص ﴿ إِنَّ ﴾ أنه يُحتاج "إليها إذا كان له ظن في الخلاف، وعقْد قلب على نفي ما تثبت أو إثبات ما تنفي، ولذلك تراها تزداد حسنا إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن، ولشيءٍ قد جرت عادة الناس بخلافه"[7]. فالآيات تستحضر المنافقين في خطابها كله،

---

١ حاشية القونوي، ٣٥٧–٣٥٨.

٢ ينظر: دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ١٦٧–١٦٨.

٣ نظم الدرر، ١٥/٣٤٧–٣٤٨.

٤ التحرير والتنوير، ٢٢/١٨.

٥ ينظر: تفسير الطبري، ١٩/١٠٨.

٦ ينظر: كتاب الصناعتين، ١٩٠.

٧ دلائل الإعجاز، ٣٢٥.

فكل ما سبق من أوامره –تعالى– ونواهيه لأزواج النبي –صلى الله عليه وسلم– في الأمور الخفية الباطنة وفي الأمور الظاهرة ليس دالاً على أن الله لا يُحيط بالدقائق، وإنما الله محيط بأدقّها وأخفاها.

"وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ فاصلة تقع في النفس موقعًا جليلاً في هذا السياق؛ وذلك لأن الآيات تتحدث عن الملاينة في القول، والتبرج، والقول السديد الصائب، وغير ذلك مما هو خاص بالسلوك والآداب، وذكر هذين الوصفين الجليلين من أسماء الله الحسنى، يشير إلى أن ما قد تهمس به النفوس في سرائرها لا يفوت اللطيف الخبير علمه وإدراكه، وخواطر النفس في باب الجنس ليست خواطر طافية على سطحها، وإنما هي وسوساتٌ في أبعد مطاويها، واللطيف الخبير لا تعزب عنه همهمةٌ في قاعها السحيق"[1].

واستعمال ﴿إِنَّ﴾ جاء للتوكيد؛ "ردعًا لمن يشك في أن الرفعة يُوصَل إليها بضدها"[2].

"وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة. والتعليل صالح لمحامل الأمر كلها؛ لأن اللطف يقتضي إسداء النفع بكيفية لا تشق على المُسدَى إليه.

وفيما وُجّه إلى نساء النبي –صلى الله عليه وسلم– من الأمر والنهي ما هو صلاح لهن، وإجراء للخير بواسطتهن، وكذلك في تيسيره إياهن لمعاشرة الرسول –عليه الصلاة والسلام– وجعلهن أهل بيوته، وفي إعدادهن لسماع القرآن وفهمه، ومشاهدة الهدي النبوي، كل ذلك لطف لهن هو الباعث على ما وجهه إليهن من الخطاب ليتلقّين الخبر ويبلغنه؛ ولأن الخبير؛ أي العليم إذا أراد أن يُذهب عنهن الرجس ويطهرهن حصل مراده تاما لا خلل ولا غفلة.

---

١ من أسرار التعبير القرآني، ٢٩٩.

٢ نظم الدرر، ج١٥/٣٤٨–٣٥١.

فمعنى الجملة أنه –تعالى– موصوف باللطف والعلم كما دلّ عليه فعل ﴿كَانَ﴾، فيشمل عموم لطفه وعلمه لطفَه بهن وعلمَه بما فيه نفعهن"[1].

"ووصف اللطيف يتممه وصف الخبير، فإذا كان اللطيف يعني الدقة في تناول الأشياء وحسن التأتي، فالخبرة تعني معرفة الموضع، فاللطف لا يتأتى إلا بالخبرة"[2].

وإن كان اللطيف اسم فاعل أو صفة مشبهة من لطُف –بضم الطاء– "فهي صفة مشبهة تدل على صفة من صفات ذات الله –تعالى–، وهي صفة تنزيهه –تعالى– عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته، فيكون اختيارها للتعبير عن هذا الوصف في جانب الله –تعالى– هو منتهى الصراحة والرشاقة في الكلمة، لأنها أقرب مادة في اللغة العربية تقرّب معنى وصفه –تعالى– بحسب ما وُصفت له اللغة من متعارف الناس... وإن اعتبر اللطيف اسم فاعل من لطَف –بفتح الطاء– فهو من أمثلة المبالغة يدل على وصفه –تعالى– بالرفق والإحسان إلى مخلوقاته وإتقان صنعه في ذلك وكثرة فعله ذلك، فيدل على صفة من صفات الأفعال. وعلى هذا المعنى حمله سائر المفسِّرين والمُبيِّنين لمعنى اسمه اللطيف في عداد الأسماء الحسنى... فإذا حمل على هذا المحمل هنا كان وصفا مستقلا عما قبله لزيادة تقرير استحقاقه –تعالى– للإفراد بالعبادة دون غيره"[3].

و﴿ خبير﴾ "صفة مشبهة من خبُر –بضم الباء– في الماضي، خُبْرا –بضم الخاء وسكون الباء– بمعنى علِم وعرَف، فالخبير الموصوف بالعلم بالأمور التي شأنها أن يُخبر عنها علما موافقا للواقع. ووقوع الخبر بعد اللطيف... موقعه موقع الاحتراس لمعنى اللطيف، أي هو الرفيق المحسن الخبير بمواقع الرفق والإحسان وبمستحقّيه"[4].

---

١ التحرير والتنوير، ج٢٢/ ١٩. وينظر: تفسير الطبري، ١٩/ ١٠٨–١٠٩.

٢ تفسير الشعراوي، ج١٩/ ١٢٠٢٩.

٣ التحرير والتنوير، ٧/ ٤١٧.

٤ التحرير والتنوير، ٧/ ٤١٧–٤١٨.

إن هذه الآيات تصب في قالب موضوع سورة الأحزاب، حيث سعي القرآن الكريم لتطهير بيت النبوة مما يُراد به من مكائد المنافقين الذين لا يتحركون أوّل تحركهم إلا في مجال المرأة وشؤونها، ومن بعد ذلك تنزل هذه الآيات على واقع المهتمين بالدعوة والعلماء والصالحين وما ينبغي لهم في إدارة بيوتهم، ومن بعدها ينبغي على باقي المجتمعات أن تتحلى بهذه الآداب التي نزلت على بيت النبوة، فهي عامة لجميع المسلمين والمسلمات، ولا سيما أن الواقع الاجتماعي الحالي يستدعي ذلك.

* * *

خاتمة

لقد بدأ هذا البحث بتمهيد يعرف باسم سورة الأحزاب ومقاصدها الكريمة التي تسعى إلى بناء قواعد الأسرة والمجتمع المسلم بترسيخ بعض الآداب، والنهي عن بعضها الآخر، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها من سور. تلا ذلك التحليل النظمي المتدرج لألفاظ كلّ آيةٍ وجُملها بما أبرز معانيها ومقاصدها الخاصة على مستوى خطاب زوجات النبي –صلى الله عليه وسلم– بخاصة، ومن ثَمّ على مستوى نساء المؤمنين بعامة.

ومن أبرز النتائج التي انتهى إليها هذا البحث الآتي:

١–رفق الله –سبحانه وتعالى– بأمهات المؤمنين –رضوان الله عليهن– في الخطاب، بوصفهنّ زوجاتٍ للنبي –صلى الله عليه وسلم– على الرغم مما في الخطاب من وعيدٍ وتهديد.

٢–تقديم الله –سبحانه وتعالى– للعلاقة الزوجية بين النبي –صلى الله عليه وسلم– وزوجاته –رضي الله عنهن– في إقامة أساليب الخطاب ووجهته؛ إذ جعل التخيير أمرًا منه –تعالى– يُبلّغه الرسول –صلى الله عليه وسلم– ، ولم يجعله على لسان الرسول – صلى الله عليه وسلم– حتى لا تسوء العلاقة الزوجية.

٣–تنويع أساليب النداء، والتناوب بين الوعد والوعيد، بتقديم الوعد على الوعيد تارةً، وتقديم الوعيد على الوعد تارةً أخرى؛ وذلك لبعث نشاط النفس والعقل والقلب، وتعميق التصور؛ وذلك أدعى للاستجابة الحسنة.

٤–تشريف الله –سبحانه وتعالى– لأمهات المؤمنين بهذا الخطاب تشريفًا يرفعهنّ على كلّ نساء العالمين على الرغم مما ورد فيه من تهديد وترهيب جاءا من باب التهييج والإلهاب على التمسك بالمحامد.

٥–نزول الخطاب موافقًا لحدود قدرات النساء القلبية والبدنية على فعل الطاعات، وتجنّب المنكرات.

٦-التدرج في سوق الخطاب، إذ بدأ نداءً للرسول -صلى الله عليه وسلم- وأمرًا له يخاطب به زوجاته، ثم توسّع الخطاب ليشمل نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- بما فيهن بناته ومن تسرّى بهن، ثم توسّع أكثر ليشمل أهل بيت النبي -صلى الله عليه وسلّم- كلّهم -رضوان الله عليهم أجمعين-.

٧-تميزت الآيات السبع بكثرة ورود لفظ الجلالة ﴿الله﴾ فيها، حيث ورد ثمان مرات، وفي ذلك تأكيدٌ لشرفهن -رضوان الله عليهن- وأنه -صلى الله عليه وسلم- ينطق بما أوحاه إليه -عزّ وجلّ-، وأن الله فيما ألقى إليهن من تخيير وأوامر ونواهٍ يحرسهن من كيد المنافقين ودسائسهم.

هذا وأدعو الله التوفيق والسداد.

* * *

المصادر والمراجع

-الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٣٩٤هـ.

-أسماء سُور القرآن وفضائلها، د.منيرة محمد ناصر الدوسري، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤٢٦هـ.

-أصول السرخسي، أبو بكر، محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، تحقيق: أبي الوفاء الأفغاني، ط١، دا المعرفة، بيروت، ١٩٧٣م.

-أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د.عبد الله محمود شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

-الإيضاح في علوم البلاغة، أبو المعالي، جلال الدين، محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الشافعي، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣، دار الجيل، بيروت، د.ت.

-البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين، محمد بن بادر بن عبد الله الزركشي الشافعي، تحرير: الشيخ: عبد القادر عبد الله العاني، راجع: د.عمر سليمان الأشقر، ط٢، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٤١٣هـ.

-تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني البغدادي المصري، تقديم وتحقيق: د.حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، د.ت.

-التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

-تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ: عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ: علي محمد معوض، د.زكريا عبيد المجيد النوتي، د.أحمد التجولي الجمل، قرظ: أ.د. عبد الحي الفرماوي، ط١، دا الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.

-تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، مصر، ١٩٩٧م.

-تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ط١، دار هجر، الجيزة، ١٤٢٢هـ.

–تفسير الفخر الرازي (المُشتهِر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، محمد الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

–تفسير جزء تبارك وفوائده وأحكامه، د.عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، ط١، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ١٤٣٢هـ.

–تلوين الخطاب لابن كمال باشا: دراسة وتحقيق، شمس الدين، أحمد بن سليمان بن كمال باشا، تحقيق: عبد الخالق بن مساعد الزهراني، ط١، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة ٣٣، العدد ١١٣، ١٤٢١هـ، ص٢٩٧–٣٨٤.

–الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، أبو الفتح، ضياء الدين، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، د.م، ١٣٧٥هـ.

–الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمّنه من السنة وآي القرآن، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، ومحمد رضوان عرقسوسي، وماهر حبّوش، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٧هـ.

–الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد، بدر الدين، حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي، تحقيق: د.فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

–حاشية القُونوي على تفسير الإمام البيضاوي، عصام الدين، إسماعيل بن محمد الحنفي (ت ١١٩٥هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

–دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، حسن عثمان يوسف عدوان، إشراف: د.محسن سميح الخالدي وَ د.حسين أحمد الدراويش، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ١٤٢٤هـ.

–دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، حوالي ١٩٨٤م.

–روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل، شهاب الدين، السيد محمد الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

-سنن الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٩٥هـ.

-شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت.

-صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -ﷺ-)، أبو الحسن، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،

-في ظلال القرآن، سيد قطب، ط٣٢، بيروت-القاهرة، دار الشروق، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

-كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

-الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، بمشاركة: أ.د.فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

-لسان العرب، أبو الفضل، جمال الدين، محمد بن مكرم بن على بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

-اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص، عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، شارك في التحقيق بالرسالة الجامعية: د.محمد سعد رمضان حسن و د.محمد المتولي الدسوقي حرب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

-المبسوط في القراءات العشر، أبو بكر، أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني، تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، ط١، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨١م.

-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح، ضياء الدين، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

-مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين، أبو الحسن، إبراهيم بنعمر البقاعي الشافعي، تقديم وتحقيق: د.عبد السميع محمد أحمد حسنين، ط١، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٨هـ.

–المطول، سعد الدين التفتازاني، المطبعة العثمانية، استانبول، ١٣٠٤هـ.

–معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، د.محمود عبد الرحمن عبد المنعم، دار الفضيلة، د.م، د.ت.

–من أسرار التعبير القرآني: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، د.محمد محمد أبو موسى، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

–نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين، أبو الحسن، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

–نُكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، محمد بن علي الكرجي القصاب، تحقيق: إبراهيم بن منصور الجنيدل، ط١، دار ابن القيم–دار ابن عفان، الدمام–القاهرة، ١٤٢٤هـ.

* * *